

حكايات الصيد

جي دي موباسان

قصص

ترجمة

حسام أبو سعدة

طبعة ٢٠١٩

موباسان، جي دي

حكايات الصيد/جي دي موباسان، ترجمة حسام أبوسعدة؛ - الجيزة:
أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٨ .

١٩٦ ص، ٢٠ سم

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٣٩٩ ٧٤٧٢

١- القصص الفرنسية ٢- القصص القصيرة

أ- أبوسعدة، حسام (مترجم) ب- العنوان

حكايات الصيد

جي دي موباسان

قصص

ترجمة

حسام أبو سعدة



الكتاب : حكايات الصيد

ترجمة : حسام أبوسعدة

الغلاف : عصام محمد

الناشر : أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

رئيس مجلس الإدارة
سرطان

عادل المصرى

مدير مجلس الإدارة
ع

الإشراف
ع

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٨/٢٥٤٩٠

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧٤٧-٢

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٩

حكايات أبو فصاد

كان البارون العجوز «رافو» هو ملك الصيادين فى إمارته لمدة أربعين عاماً. لكن من خمس أو ست سنوات أصاب الشلل ساقيه وغرسه فوق المقعد. أصبح لا يستطيع إلا صيد الحمام من نافذة الصالون أو من أعلى سلم المنزل. ثم يقرأ أثناء بقية النهار.

إنه رجل أعمال محبوب، لازل يحتفظ بالأفكار الأدبية من القرن الماضى. يحب الحكايات، الحكايات القصيرة الخليعة وأيضاً الحكايات الحقيقية للمحيطين به. ما أن يأتى إليه أحد الأصدقاء حتى يسأله:

- حسناً، ما هى الأخبار؟

ثم ينهال فى الأسئلة و الاستفهام كما لو كان محققاً فى النيابة أو قاضياً.

فى الأيام المشمسة يدفع مقعده الوثير الذى يشبه الفراش إلى عتبة الباب. يقف الخادم خلفه حاملاً البنادق، يعمرها بالطلقات الصغيرة ثم يقدمها لسيده. وهناك الخادم الآخر يختبئ خلف الأشجار يترك حمامه من حين لآخر على مسافات متفاوتة حتى لا يغفل سيده و يظل نشيطاً.

من الصباح إلى المساء يطلق النيران على الطيور السريعة.
يحزن كثيراً إذا أفلتت واحدة ويضحك بشدة حتى تنهمر الدموع
من عينيه عندما تسقط الحمامة أو عندما تفعل أية حركة غير
متوقعة ومضحكة. يلتفت إلى الخادم الذى يعمر له البندقية
ويسأله مبهتجاً:

- هل رأيت مثل ذلك يا «جوزيف»؟ هل رأيتها وهى
تسقط؟

«جوزيف» يجيب بلا تفكير:

- آه! سيدى البارون لا يفلت شيئاً.

فى الخريف، موسم الصيد، يدعو أصدقاءه مثلما كان يفعل
فى الأيام الغابرة. يحب الاستماع إلى صوت الطلقات من بعيد.
يعتقد أن الطيور تكون سعيدة وهى تتساقط. فى المساء يطلب
من الأصدقاء أن يقصوا عليه ما حدث أثناء النهار.

إنها حكايات غريبة ومغامرات مثيرة للصيادين. بعض
الحكايات قديمة معروفة من المأثورات الشعبية. حكاية الأرنب
الذى فقده الشريف الصغير فى بهو المنزل يقصونها عليه كل
عام وبنفس الأسلوب. كل خمس دقائق يقول متحدث جديد:

- سمعت صوتاً غريباً ثم ظهر لى قطيع رائع على بعد عشر خطوات. صوبت سلاحى ثم انهمرت الأمطار بشدة. رأيت سبعة حيوانات.

يندهش كل الحاضرين لكنها ليست دهشة حقيقية.

توجد عادة قديمة فى المنزل اسمها: حكايات «أبو فصاد».

أثناء مرو هذه المملكة من الفرائس تبدأ نفس الاحتفالات كل ليلة.

لأنه يحب الطيور الغامضة يأكلها كل ليلة مع المدعويين. لكن كل منهم يحرص على ترك رأس الطير فى الطبق.

ثم يتعاملون مع البارون مثل المطران. يضعون فى طبق قليل من الدهن. يلتقطون الرؤوس الثمينه من خلال مناقيرها. يضعون بجواره الشمعدان و يجلس الجميع صامتاً مبهتجاً.

ثم يختار أحد الرؤوس و يثبتها فوق دبوس و يثبت الدبوس فى الفلين ثم يرفع الفلين من الوسط و يسمح لها بالحركة مثل الميزان و يغرس هذا الجهاز فى سداة زجاجة لتصبح مثل الباب الدوار. كل المدعويين يرددون بصوت قوى:

- واحد اثنان ثلاثة.

ثم يبدأ البارون فى إدارة هذه اللعبة بإصبعه. عندما تقف وتشير إلى رأس معين من الطيور يصبح على صاحب هذه الرأس أن يقص حكاية.
وهذه هى بعض الحكايات.



الخنزير «موران»

- ١ -

قلت لـ «لابارب»:

- هكذا صديقى قلت كلمتين «خنزير موران». لماذا أيها الملعون لا نسمع أى شىء عن «موران» دون الحديث عن هذا الخنزير؟

اليوم، «لابارب» نظر إلىّ بعيون قطة شرسة ثم قال:

- كيف لا تعلم حكاية «موران» و أنت من «لاروشال»؟

أعلنت أننى لا أعلم حكاية «موران».

هكذا فرك «لابارب» يديه وبدأ حكايته. قال:

- أنت تعرف «موران» أليس كذلك؟ وتذكر متجره الكبير

للأقمشة و الخردوات على رصيف «لاروشال»؟

- نعم، أعرف ذلك جيداً.

- حسناً، لتعلم أنه فى عام ١٨٦٢ أو ٦٣، ذهب «موران»

لقضاء خمسة عشر يوماً في «باريس» للتنزه والاستمتاع، لكنه

اتخذ من تنمية التجارة و تجديد البضائع حجة لهذه الرحلة. تعلم ماذا يعنى قضاء خمسة عشر يوماً فى «باريس» بالنسبة لتاجر كبير. هذا يدفع الدماء إلى الغليان. الجماهير و النساء والإثارة و المتعة كل ليلة. لا نرى أبداً إلا راقصات بملابس خليعة، ممثلات عاريات، سيقاناً بيضاء، نهاداً ممتلئة، كل هذا جوارك لكن لا تستطيع لمس أى شىء. لا تستطيع الاستمتاع بهذه المتع إلا مرة أو مرتين فى الأماكن الداخلية. نشعر بوغزة فى القلب والروح متلهفة لتقبيل الشفاه.

كان «موران» يعانى من هذه الحالة عندما حصل على تذكرة القطار الفاخر من «لاروشال» فى الثامنة وأربعين دقيقة مساءً. راح يتجول بقلب مفعم بالأمل و الاضطراب فى الصالة الضخمة للسكة الحديد لـ «أورليانز» ثم وجد نفسه أمام امرأة صغيرة تودع سيدة عجوز. كانت ترفع طرحتها فهتف مبهتجاً: عجباً، يا لها من رائعة.

بعد أن ودعت العجوز دخلت قاعة الانتظار وتبعها «موران» ثم راحت تتجول على الرصيف و «موران» يتبعها. ثم ركبت عربة القطار الفارغة و«موران» يتبعها دائماً.

لم يكن هناك إلا عدد قليل فى القطار الفاخر. صفر القطار و تحرك وأصبحا منفردين فى العربة.

التهمها «موران» بنظراته. تبدو فى التاسعة عشر أو العشرين من العمر، شقراء، بدينة، جسورة. لفت حول ساقها الغطاء وتمددت على المقعد لتنام.

تساءل «موران» فى نفسه: من تكون؟ تقافزت احتمالات كثيرة فى رأسه. قال فى نفسه: يقولون عن مغامرات كثيرة فى السكة الحديد. ربما تكون هذه مغامرتى الخاصة، من يدرى؟ المكان فاخر. لا ينقصنى إلا أن أكون جسوراً. ألم يقل «دانتون»: الجسارة، الجسارة، و دائماً الجسارة؟ إن لم يكن «دانتون» فهو «ميرانو». ليس هذا مهماً. آه لو نعلم، لو نعلم قراءة الأرواح. لو نعلم ذلك سنحصل دائماً على فرص مناسبة رائعة. لا ينقصنى إلا إشارة منها.

هكذا توهم مغامرات تؤدى إلى النصر. تخيل أن يكون المدخل إليها بأسلوب الفرسان، يعرض عليها بعض الخدمات ثم محاورات حية تنتهى إلى... تنتهى إلى ما تفكر به.

لكن ما ينقصه دائماً هو البداية، الحجة لبداية المناورة. يترقب اللحظة المناسبة، قلبه يخفق بشدة، يتأرجح بين اليأس والأمل.

مرت ساعات الليل والجميلة الصغيرة تغط فى نوم عميق بينما «موران» يكتم أنفاسه. أتى الصباح و أرسلت الشمس

أشعتها الأولى من الأفق البعيد لتسقط على وجه الجميلة
النائمة.

استيقظت، جلست وراحت تتأمل الحقول. ابتسمت مشجعة
مبتهجة. ارتجف «موران». بلا شك إنها الإشارة المباشرة التي
يترقبها. اعتقد أن هذه الابتسامة تعنى: هل أنت أحمق، غبي،
مغفل، لتبقي فوق مقعدك مثل الوتد منذ ليلة أمس؟ أنظر إلى،
ألا تجدني مثيرة؟ و أنت تجلس طوال الليل مع امرأة جميلة دون
أن تستطيع قول شيء.

ابتسمت وهي ترقبه ثم بدأت فى الضحك. فقد «موران»
عقله و هو يبحث عن الكلمة المناسبة، أى مجاملة، أية كلمة
يقولها مهما كانت. لكنه لم يجد شيئاً. ثم انتبه و قرر المغامرة
بكل شيء. تقدم نحوها و ضمها إلى صدره وقبلها.

قفزت و هى تطلب النجدة بصرخة مرعوبة. فتحت النافذة
وهى تحرك يديها للخارج طالبة الغوث. حاولت القفز بينما
«موران» يشعر بالتيه، خشى عليها من السقوط فأمسك بها من
ثوبها و هو يقول:

- سيددتى... آه سيدتى.

بدأ القطار يخفف من سرعته و توقف. صعد اثنان من الموظفين بسبب استغاثتها، سقطت الصغيرة فى أحضانها وهى تبكي وتقول: هذا الرجل يريد... يريد... ثم سقطت مغشياً عليها.

حدث هذا فى محطة «موزيه». الجنود قبضوا عليه وأقاموا معه تحقيقاً سريعاً ثم سمحوا له بالانصراف وهو يتعهد أمام الجميع أن يكون حسن الخلق فى الأماكن العامة.

- ٢ -

فى هذه الأيام كنت رئيس تحرير الجريدة. كنت أرى «موران» كل ليلة فى مقهى التجار.

فى اليوم التالى لهذه المغامرة أتى يبحث عنى وهو لا يعلم ماذا يفعل. لم أخف عنه رأى: أنت لست إلا خنزيراً، لا يجب فعل ذلك أبداً.

بكى، زوجته ضربته وبارت تجارته. الزبائن يهربون منه، الأصدقاء يبتعدون عنه. فى النهاية أشفقت عليه و استدعيت معاونى لطلب النصيحة. إنه شاب صغير لكنه عاقل رشيد.

نصحتنا بمقابلة وكيل النيابة الذى كان صديقاً لى. طلبت من «موران» العودة إلى منزله وذهبت لمقابلة وكيل النيابة.

أعلم أن السيدة المنتهكة هي شابة صغيرة، الأنسة «هنريات بونال» التي حصلت من «باريس» على شهادة المعلمين، وهي بلا أب و بلا أم، تقضى إجازتها عند عمها أو عمتها، و هي جادة، بورجوازية صغيرة من «موزيه».

ما يضاعف صعوبة الموقف أن العم قدم شكوى. النائب العام مستعد لوقف القضية لو أن الشكوى سُحبت. هذا ما يجب أن نضعه فى الاعتبار.

ذهبت إلى «موران» لأجده طريح الفراش فى حالة سيئة. زوجته ضخمة قوية، ثرثارة، لا تهدأ أبداً. قادتني إلى الحجرة وهي تصرخ قائلة: هل أتيت لترى هذا الخنزير «موران»، حسناً، هذا هو.

ثم وقفت ثابتة وهي تقبض على الفراش. شرحت له الموقف و رجاني أن أذهب إلى عائلتها. وافقت رغم أن الموقف حساس للغاية. الشيطان المسكين يكرر: أوكد لك أننى لم أحتضنها أبداً، أقسم لك.

قلت: هذا لا يعنى شيئاً، أنت لست إلا خنزيراً. وأخذت منه ألف فرنك من أجل مصاريف القضية.

حتى لا أقوم بالمغامرة بمفردى فى منزل العائلة رجوت
معاونى أن يأتى معى. وافق بشرط أن نعود فوراً لأنه مشغول
بقضية هامة فى «لاروشال» فى مساء الغد.

بعد ساعتين كنا أمام منزل جميل فى الريف. فتاة جميلة
صغيرة فتحت لنا. بالتأكيد هى نفسها. قلت بصوت منخفض
لمعاونى: بدأت أعذر «موران».

العم، السيد «توفوليه» هو متدين سياسى مغرور. استقبلنا
بحفاوة، شكرنا و هو يضغط على أيدينا و التقينا عنده اثنين
من المحررين فى جريدته. معاونى همس فى أذنى: أعتقد أننا
نستطيع حل مشكلة الخنزير «موران».

المشاكل ابتعدت وهاجمت بالأسئلة و الحقيقة. طرحت شبح
العار، كنت أنوه أن هذا يثير الشبهات حول الفتاة الصغيرة لأن
الناس لن تصدق أبداً أنها مجرد قبلة برئية.

يبدو أن الرجل الطيب اقتنع لكنه لا يستطيع اتخاذ أى قرار
بدون زوجته التى ستعود فى وقت متأخر من الليل. و فجأة
صرخ وهو يقول بفخر: لدى فكرة جيدة، سنتناول العشاء معاً
ونستكمل حوارنا عندما تعود زوجتى.

معاونى تردد قليلاً لكن لأنه يرغب فى الانتهاء من قضية الخنزير «موران» قبل الدعوة.

هب العم واقفاً متشياً و نادى على ابنة أخيه و اقترح علينا التجول فى أملاكه وهو يعلن: الليلة سيكون العمل شاقاً. معاونى والعم انخرطاً فى الحديث فى السياسة. بالنسبة لى وجدت نفسى أتبعهما بعدة خطوات للخلف بجوار الفتاة الصغيرة. إنها مثيرة بالفعل. مثيرة جداً.

بحذر شديد بدأت الحديث معها عن مغامرتها للتقرب إليها. لكن يبدو أنها لا تشعر بالارتباك أبداً. استعمت إلى كأنها تستمتع كثيراً. قلت لها:

- لنفكر بالعقل آنتى فى كل المشاكل التى ستواجهك. يجب عليك المثول أمام المحكمة و مواجهة النظرات الماكرة. يجب عليك الحديث بكل صراحة أمام الجميع. يجب أن تقصى المشهد الحزين فى عربة القطار بدقة. لكن إذا أصبح الموضوع محصوراً بيننا من الممكن ألا نتحدث عن شىء أبداً. لا داعى للدخول فى متاهات الشرطة.

ضحكت وهى تقول: معك حق فيما تقول، لكن ماذا تريد؟ كنت خائفة وعندما نخاف نفقد صوابنا. ندمت على صراخى

بعد أن استوعبت الموقف. لكنى ندمت متأخراً. لا تتسى أن هذا الأحمق ألقى بنفسه علىّ مثل الوحش دون أن يقول أية كلمة. بدا لي كأنه مجنون. أنا لا أفهم ماذا يريد منى.

نظرت إلىّ بعمق دون أية رجفة و لا أى خجل. قلت فى نفسى: هذه الفتاة جسورة. لقد أخطأ الخنزير «موران» فى التقدير.

استدركت قائلاً: سنرى آنستى. لتعلمى أنه معذور لأنه من المستحيل أن يجد شخصاً نفسه أمام كل هذا الجمال دون أن يرغب فى احتضانه.

ضحكت بشدة حتى بدت كل أسنانها ثم قالت: يا سيدى، بين الرغبة والفعل يوجد مساحة للاحترام.

قولها كوميدياً وليس واضحاً تماماً. سألتها فجأة: لنرى، إذا احتضنتك أنا الآن، ماذا ستفعلين؟

وقفت وهى تتأملنى من أعلى إلى أسفل ثم قالت بهدوء: آه! بالنسبة لك الوضع يختلف.

أعلم جيداً أن الوضع يختلف طالما يطلقون علىّ فى كل الإمارة «لابارب» الطيب. كنت فى الثلاثين من العمر. سألتها: لماذا تقولين ذلك؟

هزت كتفها و هى تقول: لأنك لست أحققاً مثله . ثم أضافت
وهى تغض بصرها : ولست قبيحاً مثله .

قبل أن تقوم بأية حركة لتتجنبى زرعت قبله سريعة على
وجنتها . قفزت لكن متأخراً ثم قالت : حسناً ، لست مقزراً أبداً ،
لكن لا تعود إلى هذه اللعبة .

تصنعت الخضوع و قلت همساً : اه! آنتى ، بالنسبة لى أنا
لا يهمنى المثل أمام المحكمة لنفس السبب مثل «موران» .

سألت بدورها : لماذا؟

قلت و أنا أنظر فى عمق عينيها بجدية : لأنك أجمل مخلوق
على الأرض . بالنسبة لى سأعتبر هذا نصراً كبيراً أو مجداً
عظيماً . لأن الناس ستقول بعد رؤيتك أن «لابارب» لم يكن يدرى
ما سيحدث له لكنه محظوظ .

راحت تضحك من أعماق قلبها ثم قالت : أنت خفيف الظل .

قبل أن تكمل كلمتها احتضنتها ورحت أقبلها فى كل مكان
أصل إليه ، على شعرها ، على جبهتها ، فى عينيها ، وفى شفيتها
و على وجنتيها ، كل رأسها .

فى النهاية تساقطت حمراء ومجروحة ثم قالت : أنت فضل
يا سيدى . أجبرتتى على الاستماع إليك .

كنا بمفردنا، معاونى والعم اختفيا فى الممرات ورحت أبوح لها بحبي بهدوء و أنا أقبل أصابعها. استمعت إلى كما لو كانت تسمع كلاماً ظريفاً وجديداً، لكن دون أن تصدقنى.

اضطربت و أنا أفكر فيما أقوله. كنت شاحباً و بهدوء استعدت تركيزى. همست لها فى أذنيها. بدت كأنها تموت أو حاملة. ثم التقت يدها بيدي فضغطت عليها. ضغطت على خصرها بيد مرتجفة، لم تتحرك أبداً. ألهبت وجنتيها بشفتى ثم اتجهت إلى شفتيها. كانت قبلة طويلة، طويلة جداً. و كانت ستطول أكثر لولا أننى سمعت صوتاً من الخلف على بعد خطوات.

فرت هاربة خلال الأشجار، التفت لأجد معاونى. كان يتوسط الطريق، و بدون أن يضحك قال: هكذا أنت تحاول حل مشكلة الخنزير «موران».

أجبت بغطرسة: أفعل ما أستطيعه يا عزيزى. والعم؟ ماذا فعلت معه؟ أنا تفاوضت مع ابنة أخيه.

أعلن معاونى: أنا كنت قليل الحظ مع العم. قبلت يديه لكى نعود للمنزل.

أثناء العشاء فقدت صوابى . كنت أجلس بجوارها وكانت
يداي تلتقى بيديها أسفل المنضدة . أقدامى تتلمس أقدامها .
نظراتنا تلتقى ونتحاور .

بعد ذلك قمنا بجولة تحت ضوء القمر ورحت أتحدث إليها
برفق و أبثها كل ما يعتمل فى صدرى . كنت أضمها إلىّ وأقبلها
كثيراً . ألثم شفيتها . أماننا العم و معاونى يتحاوران وظلهما
يتبعهما على رمال الطريق .

عدنا إلى المنزل واستقبلنا تلغراف يفيد أن العمّة لن تعود
إلا صباح اليوم التالى، فى السابعة عن طريق أول قطار .
قال العم : حسناً ، «هنريات» أوصلى الضيوف إلى حجريتهما .
صافحنا الرجل الطيب و صعدا .

قادتنا إلى حجرة معاونى الذى همس فى أذنى : ليس هناك
خطر لأنها لم تقدنا إلى حجرتك فى البداية .
ثم قادتتى إلى فراشى . ما أن أصبحنا بمفردنا حتى
احتضنتها مرة أخرى ولم أسمح لها بالمقاومة ، ثم فرت هاربة .

اتجهت إلى فراشى وأنا فى غاية الغيظ، عصبى جداً،
مرتبك جداً. أدركت أننى لن أنام الليلة ثم سمعت طرقات
خفيفة على الباب و سألت: من؟

جاء الصوت خافتاً: أنا.

ارتديت ملابسى بسرعة، فتحت الباب و دخلت وهى تقول:
نسيت أن أسألك عما تريده فى الصباح، شوكولاته، شاي أو قهوة؟
اقتربت منها وتلمست جسدها وأنا أقول: آخذ.... آخذ....
ففرت هاربة بركة.

أصبحت وحيداً خائفاً فى العتمة أبحث عن الكبريت دون
جدوى. ثم رأيت أخيراً و خرجت إلى الممر نصف مجنون
حاملاً الشمعدان.

ماذا أفعل؟ فقدت عقلى تماماً. يجب أن أعثر عليها. رحت
أتقدم عدة خطوات دون أى تفكير ثم قلت فى نفسى: وإذا
دخلت حجرة العم، ماذا أقول له؟ تسمرت فى مكانى عاجزاً
عن التفكير بينما قلبى يخفق بشدة. ثم أتتى الإجابة بعد بضع
لحظات: سأقول له أننى أبحث عن حجرة معاونى للتحدث معه
فى أمر هام.

رحت أتأمل الأبواب محاولاً استنتاج حجرتها، لكن كل الأبواب متشابهة. بالمصادفة أدت أحد المفاتيح و دخلت فرأيت «هنريات» تجلس على فراشها تنظر إلىّ فى دعر.

قفلت الترياس برفق و تقدمت على أطراف أصابعى. قلت لها: نسيت آنستى أن أطلب منك شىء ما لأقرأه.

ارتجفت لكنى عثرت بسرعة على الكتاب الذى أبحث عنه. من العنوان أدركت أنها أعظم الروايات و أجمل الأشعار.

أدرت صفحة و تركتتى أقرأ. تصفحنا عدة فصول حتى احترقت الشمعة عن آخرها. ثم عدت إلى حجرتى بخطوات خفيفة مثل الذئاب وشعرت بيد على ظهرى و صوت معاونى يهمس: ألم تحل مشكلة الخنزير «موران» حتى الآن؟

فى السابعة صباحاً أحضرت لى بنفسها فنجان الشوكولاتة. لم أتذوق من قبل ما هو أشهى من ذلك. شوكولاتة تجعل الرأس يدور ذات رائحة خاصة جميلة. لم أستطع تناول رشفة من فنجانها.

ما أن خرجت الفتاة الصغيرة حتى دخل معاونى. بدا لى عصبياً قليلاً، يبدو أنه لم ينم جيداً بالأمس. قال لى بلهجة عابسة: لو استمررت فى ذلك ستتعدد مشكلة الخنزير «موران».

فى الثامنة عادت العمّة. المحاورّة كانت قصيرة. الكرام يكظمون غيظهم. تركت لهم خمسمائة فرنك لتوزيعها على فقراء البلدة.

دعونا لاستكمال اليوم معهم. اقترحوا زيارة الأطلال خارج المدينة. «هنريات» وهى تسير خلف ظهر أهلها أشارت لى برأسها: نعم، انتظر. وافقت لكن معاونى يريد الانصراف.

رجوته أن ينتظر معى قائلاً: اصبر صديقى العزيز، افعل ذلك من أجلي. لكنه رفض قائلاً: لدى أعمال كثيرة أهم من مشكلة الخنزير «موران».

أصبحت مضطراً للرحيل. كانت أصعب لحظات حياتى. كنت أحاول ترتيب أمور كثيرة معها.

فى عربة القطار، بعد الوداع، قلت لمعاونى: أنت لست إلا إنسان فظ. أجابنى: صغيرى، بدأت تزعجنى بشدة.

كانت الجموع فى انتظارنا فى مكتب «فانال». صرخوا منذ أن لمحونا: حسناً، هل أنهيتم مشكلة الخنزير «موران»؟

كل البلدة تضطرب، معاونى الذى كان فى حالة سيئة راح يلهث فى الطريق وهو يكتم ضحكاته ويعلن: نعم، بفضل «لابارب».

ذهبنا إلى «موران».

كان يجلس على مقعده يعاني الحمى ويضعون كمادات المياه الباردة فوق رأسه، غارقاً في الحزن، يسعل بدون توقف ولا نعلم من أين أتاه هذا المرض. زوجته ترقبه بعيون متمرة وهي على وشك اقتراسه.

منذ أن رأنا ارتجف من خصلة شعره حتى إخمص قدمه. قلت له: الموضوع انتهى، لكن لا تعاود ذلك.

هب واقفاً و قبل يدي كأننى أمير، بكى. فقد صوابه و قبل معاونى و قبل زوجته التى دفعته بغلظة إلى المقعد.

لكنه لم يتعلم من هذه الصدمة، سلوكه شديد الفظاظة. لا يطلقون عليه إلا اسم الخنزير «موران». وهذه الكلمة تخترقه مثل السهم فى كل مرة. عندما يصرخ أحد فى الشارع «خنزير» يلتفت إليه. أصدقاؤه يسخرون منه ويسألونه وهو يأكل لحم الخنزير: هل هذا جيد؟

مات بعد ذلك بعامين.

بالنسبة لى أنا، ذهبت فى مهمة لزيارة وكيل النيابة عام ١٨٧٥، السيد «بيلود». استقبلتى سيدة جميلة أنيقة. قالت لى:

- ألا تعرفنى؟

قلت: لا سيدتى.

قالت: أنا «هنريات بونال».

شعرت بالعرق يتصبب من وجهى بينما هى تضحك.

عندما انصرفت و تركتتى مع زوجها قال لى وهو يضغط

على يديى:

- أتمنى رؤيتك منذ فترة طويلة. زوجتى حدثتى كثيراً

عنك.. نعم، أعلم الموقف السخيف الذى تعرفه و قصت لى أنك

كنت لبقاً و ذكياً...

ثم همس بعد تردد:

- أعلم كل تفاصيل الخنزير «موران».



المجنونة

قال السيد «ماتيو»: «أبو فصاد» يذكرنى بالحكاية الحزينة التى حدثت أثناء الحرب.

تعلمون أن لى أملاًكاً كثيرة فى مقاطعة «كورماى». كنت أعيش هناك أثناء هجوم الألمان.

كان لى جارة تعانى نوعاً من الجنون. فسد عقلها تحت هول الصدمات الحزينة. وهى فى الخامسة والعشرين من العمر فقدت خلال شهر واحد فقط والدها وزوجها وابنها حديث الولادة.

يبدو أن الموت عندما يدخل إلى المنزل يعتاده ويزوره كثيراً. يبدو كأنه سعيد لمعرفة العنوان.

السيدة الصغيرة المسكينة صُغقت بالحزن الشديد. لم تغادر فراشها لمدة ستة أسابيع. اجتاحتها اليأس من الأزمات العنيفة. لا تتحرك ولا تأكل إلا بعد معاناة، لا تحرك إلا عينيها فقط. عندما نحاول سحبها من الفراش تصرخ فى جزع كأننا نريد قتلها. نتركها فى فراشها ولا نرفع عنها الغطاء إلا من أجل الذهاب إلى الحمام أو تقليب الفراش.

كانت هناك خادمة عجوز تقوم برعايتها، تعاونها على شرب الماء من حين لآخر أو أكل قطعة صغيرة من اللحم البارد. لا نعلم ما يحدث داخل هذه الروح البائسة. لا نعلم شيئاً عما يدور فى ذهنها لأنها لا تتحدث أبداً. هل تفكر فى الموت؟ هل تتجرع ذكرياتها المؤلمة؟ أم أن عقلها توقف تماماً فأصبح مثل المياه الراكدة العفنة؟

ظلت على هذا الحال لمدة خمسة عشر عاماً ثم حدثت الحرب. هجم الألمان على منطقة «كورماي» فى أوائل شهر سبتمبر.

أتذكر ذلك جيداً كأنه حدث بالأمس فقط. استولوا على البلدة تماماً. أصابنا ذلك بالذهول. ما زلت أتذكر أننى كنت أجلس على مقعدى ثابتاً متحسراً على الأحوال بينما الجنود الألمان يرتعون فى كل مكان. كنت أتتبع تحركاتهم من نافذتى. يجوسون فى الشوارع بحركاتهم البهلوانية. ثم قام القائد بتوزيع جنوده ليشاركوا الأهالي فى مساكنهم. أقام منهم سبعة عشر فى منزلى. أما جارتنا اقتحم دارها اثنا عشر جندياً تحت قيادة رجل فظ عنيف مشاكس.

فى الأيام الأولى مر كل شىء بهدوء. أخبروا القائد أن سيدة المنزل مريضة ولا يجب أن يشغل باله بها. لكنه بعد قليل غضب من السيدة التى لا يراها أبداً. سأل عن مرضها فقلنا له أنها صدمة نفسية شديدة جداً منذ خمسة عشر عاماً. لم يصدق ذلك و اعتقد أنها تتكبر عليهم، إنها لا تريد رؤية الألمان ولا التحدث إليهم ولا التعامل معهم أبداً. طلب مقابلتها فسمحنا له بدخول حجرتها. قال متحدثاً بلغة فرنسية ركيكة وصوت أجش:

- أرجوكى سيدتى. يجب أن تنهضى من الفراش وتنزلى إلى الصالة لاستقبال الجنود.

رتمه بنظرات تائهة خالية من أى شعور ولم ترد. قال القائد:

- أنا لا أطلب منك السماح. إن لم تقومي بإرادتك سأجد طريقة لأدفعك إلى القيام بمفردك.

لم تستجب السيدة بأية حركة، بقيت ثابتة كأنها لا تراه.

التزم القائد بالصمت برهة لكن فى غيظ وهو يرميها بنظرات الاحتقار ثم أضاف:

- إن لم تنزلى غداً ...

ثم تركها و خرج.

فى اليوم التالى حاولت الخادمة العجوز معاونتها على تبديل ثيابها لكن المجنونة راحت تصرخ وتضربها بشدة. صعد القائد إلى الغرفة بسرعة و ركعت الخادمة تحت أقدامه و هى تقول:

- لا تريد يا سيدى. لا تريد. أرجو أن تعذرها. إنها يائسة جداً.

رغم غضب القائد لم يستطع انتزاعها من الفراش بمعاونة رجاله. لكنه ضحك فجأة و ألقى أوامره للجنود بالألمانية.

بسرعة أتت القوات الخاصة بالحمالة الخاصة لرفع الجرحى، وضعوها على الحاملة بالقوة و قال القائد وهو يفرك يديه:

- سنرى كيف تبدلين ثيابك للخروج إلى نزهة صغيرة بمفردك.

اتجه الموكب نحو الغابة القريبة و عاد الجنود وحدهم بعد ساعتين.

لم نعد نرى المجنونة أبداً. أين ذهبوا بها؟ لا نعلم شيئاً.

الثلوج تتساقط الآن طوال الليل والنهار حتى اختفى الوادى وتدنثرت الغابة بالجليد و انتشرت الذئاب حول الأبواب.

اختفاء هذه السيدة يزعجنى. قمت بعدة جولات فى المناطق القريبة بعد أن أخذت التصريح من القوات الألمانية.

عاد الربيع و ابتعدت القوات الألمانية ومازال منزل جارتي
خاوياً محاطاً بالأعشاب البرية.

الخدمة العجوز ماتت أثناء الشتاء ولا أحد يهتم بهذه
الحكاية إلا أنا.

ما الذى حدث لها؟ هل هربت فى الغابة؟ هل وضعوها فى
إحدى المستشفيات دون أن يعلموا عنها شيئاً؟ لا أجد أية إجابة عن
ظنوني. لكن بمرور الوقت أصبح الحزن يخبو ويضعف فى قلبى.

فى الخريف التالى خرجت فى جولة إلى الغابة. اصطدت
أربعة أو خمسة طيور لها مناقير طويلة. أثناء الصيد اختفت
إحدى الطيور فى حفرة عميقة مليئة بالأعشاب. هبطت بحثاً
عن الصيد فرأيت الطائر بجوار رأس ميت وتذكرت المجنونة.
لم يدخل أحد الغابة منذ عدة شهور وأصبحت واثقاً تماماً
أنها رأس المجنونة.

لقد تركوها فى الفراش وسط الغابة وظلت المسكينة ثابتة
فى فراشها إلى أن توفت، ثم التهمتها الذئاب بينما راحت
الطيور تغزل أعشاشها من خيوط الفراش. ورحت أصلى حتى
يجنب الرب أبناءنا ويلاط الحرب.

«بيارو»

السيدة «لوفافر» أرملة من الريف، نصف فلاحه، ثرثارة، تبدو كأن فى داخلها روح فظة لكنها ليست طبيعتها، بل هى مرحة وساخرة. لديها خادمة ريفية بسيطة ونشيطة اسمها «روز».

السيدتان تعيشان فى منزل له أبواب خضراء يطل على الطريق الكبير فى «نورماندى»، فى قلب مدينة «كو». يزرعان بعض الخضروات فى الحديقة الصغيرة أمام الدار.

فى ذات ليلة سرقوا منها اثنى عشرة بصله. عندما لاحظت «روز» ذلك جرت لتخبر سيدتها التى هبطت بسرعة وهى ترتدى سترة من الصوف. إنها كارثة مرعبة. سرقوا السيدة «لوفافر». إذاً يوجد لصوص فى البلده و قد يعودون فى أى وقت.

تتبع السيدتان آثار الأقدام بدقة و استتجا ما حدث: مروا من هنا، وضعوا أقدامهم على الجدار وقفزوا فوق السطح. أصابهما الذعر بالنسبة للمستقبل. كيف ننام بهدوء الآن؟

تردد الخبر فى كل مكان. أتى الجيران للمناقشة و التشاور وراحت السيدتان يشرحان لكل جار ملاحظتهما وأفكارهما. فلاح من القرية المجاورة قدم النصيحة: يجب أن يكون لديكما كلب.

بالفعل يجب أن يكون لديهما كلب ليستطيعا النوم أثناء الليل. ليس كلباً ضخماً بالضرورة. ماذا سيفعلان بالكلب الضخم؟ هذا يكلف كثيراً لإطعامه. يكفى كلب صغير ينبج. عندما رحل الجيران راحت السيدة «لوفافر» تفكر كثيراً في فكرة الكلب. دارت رأسها في جميع الاقتراحات، مشهد الطبق الذى يأكل منه يثير اشمئزازها. لا تحب الحيوانات كثيراً لكنها تحتفظ فى جيبها ببعض المال لتقدمه للفقراء والمساكين فى البلدة كما أنها حريصة على التبرع للكنيسة كل أسبوع.

«روز» تحب الحيوانات وراحت تقنع سيدتها بالفكرة.

بدأت رحلة البحث لكن لا نجد إلا كلاب ضخمة شرهة. البقال لديه كلب صغير لكنه يطلب فرانكين. بعد مناقشة طويلة قالت السيدة «لوفافر» غاضبة: أنا لا أريد إلا أن أطعم الكلب و لا أريد شراءه.

الخباز الذى سمع بالحكاية أتى ذات صباح حاملاً كلباً صغيراً أصفر فى سيارته، سيقانه قصيرة جداً، جسده نحيل جداً بينما رأسه مثل الذئب و ذيله على شكل الزمار. صاحبه يريد التخلص منه. السيدة «لوفافر» وجدت الفرصة مناسبة، لن تدفع شيئاً. «روز» قبلت الكلب ثم سألت ما اسمه؟ أجاب الخباز: «بيارو».

وضعوا الكلب فى كرتونة الصابون القديمة وأتوا له بالمياه ثم ألقوا له بقطعة الخبز. أكل. بدأت السيدة «لوفافر» تشعر بالقلق ثم قالت: بعد أن يعتاد المكان سنتركه حرّاً و سيعثر على الطعام فى طرقات البلدة.

بالفعل تركوا الكلب ليعيش حرّاً، هكذا لا يشعر بالجوع أبداً. أصبح لا ينبغ إلا طلباً للخروج للبحث عن طعامه، وفى هذه الحالة ينبغ بشراسة.

أصبح الجميع يستطيع دخول الحديقة. يذهب «بيارو» إلى القادم و يداعبه فى صمت.

اعتادت السيدة «لوفافر» هذا الحيوان، ثم بدأت تحبه وتقدم له الطعام بيدها من حين لآخر. لكنها لم تفكر أبداً فى الرخصة. البلدية طلبت ثمانية فرنكات لترخيص الكلب. فى هذه اللحظة كادت أن تسقط مغشياً عليها.

على الفور قررت التخلص منه، لكن لا أحد يريد. كل الناس ترفضه حتى لو كانوا على بعد عشرة كيلومترات. يجب التخلص منه بطريقة أخرى. «يأكل التراب».

فى وسط الوادى الضيق نلاحظ وجود كوخ صغير، أو بالأحرى سقيفة من الأعشاب البرية. إنه المدخل ثم حفرة عميقة تصل إلى عشرين متراً تحت سطح الأرض.

فى الأزمان الغابرة كانوا لا يذهبون إلى هذا المكان إلا مرة واحدة فى العام، أما بقية العام يستخدمونها مقبرة للكلاب المحكوم عليها بالإعدام. لذلك نسمع هناك صرخات الشكوى والجزع من الحيوانات المسكينة. يلقون هنا بكلاب الصيادين والرعاة بعد أن تشيخ. لذلك أصبحت الرائحة كريهة جداً.

المأساة تحدث فى عمق الحفرة. عندما يلقى الأهالى بالحيوانات المراد التخلص منها فى هذه الحفرة، يظل الحيوان حياً لمدة عشرة أو اثنى عشر يوماً، يلتهم بقايا الحيوانات السابقة النافقة. أحياناً يجتمع أكثر من حيوان حى فى وقت واحد. الأقوى و الأضخم يلتهم الأصغر و الأضعف.

فى البداية اتجهت السيدتان إلى الحفرة أثناء النهار لكن الموظف طلب منهما مبلغ من المال ليسمح لهما بالتخلص من «بيارو». السيدة «لوفافر» رفضت. فى القرية المجاورة يطلب الموظف نصف هذا المبلغ. لذلك اقترحت الخادمة أن يتوجها إلى الوادى أثناء الليل.

فى هذه الليلة منحنا الكلب وجبة شهية من الخبز مع قطع الزبد. التهمها حتى آخر قطعة ثم حرك ذيله فى امتنان. احتضنته «روز» ثم اتجهتا إلى الحفرة بخطوات خفيفة مثل اللصوص. عند وصولهما ألقى السيدة «لوفافر» أذنيها فى

الحفرة لتعرف إن كان بداخلها حيوان حى وتأكدت من خلو الحفرة. «بيارو» سيكون بمفرده. بكت «روز» وهى تحتضن الكلب ثم ألقته فى الحفرة.

فى البداية سمعا أصواتًا خفيفة ثم نباح حاد من حيوان جريح ثم صرخات سريعة من الألم ثم صرخات يائسة. ثم ألقيا نظرة أخيرة ليجدا الكلب ينبح وهو يحاول الخروج.

شعرا بخوف مجنون غامض ثم الهروب. كانت «روز» تجرى فى المقدمة و خلفها سيدتها تصرخ انتظرينى.. انتظرينى... وفى المساء بدأت الكوابيس تطاردهما.

استيقظت السيدة «لوفافر» فى منتصف الليل. لاحظت وجود طبق الكلب خاويًا. اشتمت رائحته. سمعت نباحه. ثم انتبهت وتأكدت من أنها مجرد أوهام وخيالات وعادت إلى النوم.

رأت نفسها فى طريق طويل لا نهايه له. فى منتصف الطريق رأت سلة كبيرة بلا صاحب. شعرت بالخوف الشديد من هذه السلة. فتحت السلة و رأت «بيارو» يتكور بداخلها، لحس يديها ولم يتركها فجرت تائهة وهى تحمل الكلب. عندما أتى الفجر استيقظت مذعورة وجرت نحو الحفرة.

الكلب ينبح. مازال ينبح. كان ينبح طوال الليل. راحت تناديه و تدلّله بكل الأسماء التي تعرفها و الكلب يجيبها بصوته الحزين. تريد أن تراه و وعدته أن تعمل على إبعاده حتى آخر لحظة فى حياته.

ذهبت إلى الموظف المختص بالمقبرة و قصت له حكايتها فقال لها: هل تريدين كلبك؟ هذا يكلفك أربعة فرنكات.

استشاطت فى غضب و ذهبت كل أحزانها فجأة، و عاد الموظف يقول: لا بد أن أحضر الحبل و آلات خاصة، كما أن ابنى سيعمل معي، كل هذا من أجلك، هل أربعة فرنكات كثيرة؟

عادت إلى الخادمة و أخبرتها بما قاله موظف المقبرة. كانت السيدة «لوفافر» توافق على الدفع لكن «روز» قالت: المبلغ ضخيم سيدتي. ثم أضافت: من الممكن أن نلقى له بالطعام داخل الحفرة. هكذا لن يموت.

سعدت السيدة «لوفافر» بهذه الفكرة. اتجهت مع خادمتها إلى الحفرة حامله قطعة كبيرة من الخبز مع الزبد. و راحت تمزق الخبز إلى قطع صغيرة وتلقيها لـ «بيارو». واستمر الحال هكذا عدة أيام. فى ذات صباح سمعتا صوتاً غريباً داخل الحفرة يختلط مع صوت «بيارو». لقد تخلص أحدهم من كلبه بالأمس. والكلب الآخر ضخم. صرخت «روز»: «بيارو».

تجاوب معها «بيارو» فألقت له بقطع الخبز الصغيرة. لكن فى كل مرة تسمع ضجة تحدث فى الحفرة ثم تسمع صوت «بيارو» يبكى من الجوع و الألم. الكلب الأضخم يلتهم كل الطعام ويعض «بيارو» الصغير. قالت السيدة « لوفافر»:

- لا أستطيع إطعام كل الكلاب المراد التخلص منها. يجب أن ننسى هذا الموضوع تماماً.



الرقصة

كل البؤس لا يثير أحزاني أبداً. هكذا يقول «جون بريدال».
كهل، قاده عقله إلى اعتناق مذهب الشكاك.

ثم يكمل: رأيت الحروب عن كثب، دهست الجثث دون
أى شفقة. قسوة الطبيعة أو قسوة الإنسان تجعلنا نصرخ من
الرعب أو من السخط، لكن لا تجعل قلبنا يرتجف هذه الرجفة
التي تحدث عندما نرى أشياء بسيطة مؤلمة.

أكبر ألم نشعر به، بالتأكيد، هو فقدان الطفل بالنسبة
لأمه، و فقدان الأم بالنسبة للإنسان. هذه الأشياء مؤسفة
ومرعبة، تمزق القلب. لكننا نشفى من هذه الألام مثلما نشفى
من كل الجروح الخطيرة. أى أن بعض المقابلات، بعض الأمور
التي نلاحظها، بعض الأحزان الدفينة، بعض ألعاب القدر، كل
هذه الأشياء تلهو بنا فتجعل العالم كله عبارة عن افكار مؤلمة
وتفتح لنا أبواب الألم النفسى الغامض المعقد. كل هذا يجعل
العالم يبدو وهمياً و يجب الفرار منه.

يوجد أمام عينيّ أشياء لا يلاحظها الآخرون أبداً، لكنها
متداخلة فى أعماقى مثل جروح خطيرة لا علاج لها.

من الممكن جداً ألا تفهموا ما أقصد . لكنى ساقص لكم قصة حديث لى . قصة قديمة جداً لكنها قابعة فى أعماقى كأنها حدثت بالأمس .

اليوم أنا فى الخمسين من العمر . حدثت هذه القصة عندما كنت صغيراً ، كنت أدرس القانون . كنت حزيناً حالمًا ، مشغولاً بالفلسفة السوداوية . لم أكن أحب القهوة الطازجة ولا الأصدقاء المازحين و لا الفتيات الغبيات . أستيقظ مبكراً . أفضل متعة التجول بمفردى فى الثامنة صباحاً وسط مشاتل «لوكسمبورج» .

أنتم لا تعلمون ما هى هذه المشاتل . إنها مثل حديقة مهجورة من القرن الماضى . حديقة جميلة مثل ابتسامة هادئة لرجل عجوز . الأشجار الضخمة تحف الطرقات الصغيرة الضيقة ، فتجول بهدوء بين جدران من أوراق الشجر النظيفة . المقصات الضخمة للبستاني تقلم هذه الأشجار بعناية وباستمرار . نجد الورود الجميلة متساقطة على الأرضية ، فروع الأشجار تتشابك وتشكل بعض الظلال الساحرة .

فى كل أركان هذه الحديقة الجميلة نجد مساكن النحل ، مساكنهم من القش داخل غصون الأشجار ومفتوحة لضوء الشمس . نجد فى كل الطرقات الحشرات الملونة والذهبية . إنها مملكة حقيقية . مملكة تعيش فى هذا المكان الرائع .

آتى إلى هنا كل صباح تقريباً. أجلس على مقعد حجرى وأقرأ. أحياناً أترك كتابى على سيقانى وأحلم، أحياناً أستمتع بصوت «باريس» الحى. أستمتع بهذا الجو البهيج.

لكنى لاحظت أننى لست الوحيد فى المكان. من بين الأشجار لمحت عجوزاً نحيلاً. يرتدى حذاءً بكعب معدنى، بنطلوناً غريباً، معطفًا نسائياً إسبانياً و قطعة من الدانتيل بدلاً من رباط العنق و قبعة فى غاية الغرابة رمادية اللون تتزين حوافها بالريش. كأنه من المختلين عقلياً.

كان نحيفاً جداً، ضعيفاً جداً، مكفهراً وبيتسم. عيناه البراقة تتبض بالحياة تحت حاجبيه الكثيفتين. يمسك دائماً بعصا رائعة ذهبية من خشب التفاح. لا بد أن هذه العصا تمثل ذكرى جميلة بالنسبة له.

هذا الرجل أذهلنى كثيراً، أثار فضولى فرحت أتتبعه من خلف فروع الأشجار دون أن يرانى.

فى ذات صباح، حينما كان يعتقد أنه وحيداً فى المكان، قام بحركات خاصة. فى البداية بضعة قفزات ثم انحناءات ثم يرفرف بسيقانه النحيفة ثم راح يدور حول نفسه ويقفز بطريقة مضحكة. بيتسم كما لو كان أمامه الجمهور. يرقص بخطوات مترددة متعثرة.

حركاته أدهشتني و رحلت أتساءل من المجنون؟ أنا أم هو؟
لكنه توقف فجأة وتقدم بخطوات متأنقة مثل الممثلين على
المسرح و انحنى وهو يبتسم و يوزع القبلات بطريقة كوميدية
على الأشجار. ثم أكمل نزهته اليومية.

منذ هذا اليوم أصبحت أراقبه كل صباح وهو يعيد هذه
الحركات. ثم هاجمتني رغبة قوية فى الحديث معه. ألقىت
التحية ثم قلت:

- الجو رائع اليوم سيدى.

انحنى و هو يقول:

- نعم سيدى، اليوم رائع مثل الأيام الغابرة.

خلال ثمانية أيام أصبحنا صديقين. علمت حكايته. كان
أستاذاً للرقص فى الأوبرا فى عهد «لويس الخامس عشر». العصا
الجميلة ما هى إلا هدية من «كليرمو» وعندما نتحدث
معه عن الرقص لا يتوقف عن الكلام أبداً.

فى ذات يوم أكد لى:

- زوجتي هى «كاسترييس». سأعرفك بها إن أردت ذلك إلا أنها
لا تأتى إلا متأخراً. هذه الحديقة، كما ترى، هى متعتنا وحياتنا.
إنها كل ما تبقى لنا من الماضى. يبدو لنا أننا سنموت إن لم

نأت إلى هنا. إنها أفكار قديمة، أليس كذلك؟ أعتقد أن الهواء هنا لم يفقد مذاقه منذ أيام الصبا. انا و زوجتي نمضى هنا كل الأمسيات. لكن أنا آتى من الصباح لأنني أستيقظ مبكراً.

ما أن انتهيت من وجبة الغذاء حتي عدت إلى «لوكسمبورج» ورأيت صديقى وهو يتأبط ذراع سيدة عجوز جداً ترتدى الملابس السوداء. عرفني بها. إنها «كاستريس»، الراقصة المفضلة للأمراء والملوك، محبوبة القرن الماضى حين كان الجو مفعماً بالحب.

جلسنا على المقعد الحجري. كنا فى شهر مايو. رائحة الورود تزكم الأنوف، أشعة الشمس تتساقط من بين فروع الأشجار. الثوب الأسود للسيدة يبدو رائعاً تحت ضوء الشمس. الحديقة خاوية و لا نسمع إلا تغريد الطيور. قلت للراقص العجوز:

- ما هى حكاية هذه الرقصة؟

ارتجف العجوز وقال:

- إنها ملكة الرقصات ورقصة الملكات. هل تفهمنى؟ منذ أن اختفى الملوك اختفت هذه الرقصة.

ثم راح يشرح كل خطوات الرقصة بالتفصيل ولم أفهم منه شيئاً. ثم التفت إلى زوجته وقال:

- سيدتى، هل تسمحين بتقديم الرقصة إلى هذا السيد؟

دارت بعينيها المضطربة فى كل الاتجاهات ثم هبت واقفة دون أية كلمة.

ثم رأيت شيئاً رائعاً. قدما الرقصة بكل حيوية ورشاقة مثل دميتين قديمتين فى آلة عتيقة.

اضطرب قلبى بشدة و داهمتى الأفكار السوداوية اليائسة. إنهما مثل القطعة الفنية الجميلة الآتية من القرن الماضى. كان لى رغبة فى الضحك و رغبة أخرى جارفة فى البكاء.

ثم توقفا عن الرقص و انحنيا فى أدب لتقديم التحية.

رحلت بعد ثلاثة أيام من هذه الإمارة و لم أرهما أبداً بعد ذلك. عندما عدت من «باريس» بعد عامين، كانت البلدية قد دمرت منطقة المشاتل. ما الذى حدث لهما بعد اختفاء حديقتهما الغالية بزهورها الجميلة وهواءها المنعش؟ هل ماتا؟ هل ذهباً يتجولان فى الطرق الحديثة الخالية من أى أمل؟ هل يرقصان أمام الجمهور فى الشوارع؟

هذه الذكرى تؤلمنى كأنها جرح عميق داخلى. يبدو أن الأمر مضحك، أليس كذلك؟



الخوف

صعدنا فوق الجسر بعد العشاء. يتمدد أمامنا البحر المتوسط بدون أية نسمة هواء ولا أية موجة خفيفة. السفينة الصغيرة تنزلق وهى تبعث بالدخان الذى يتشكل على هيئة ثعبان ضخم إلى السماء الصافية المرصعة بالنجوم. خلفنا المياه البيضاء تضطرب من حركة السفينة بينما القمر يلقى بأشعته الصافية.

كنا ستة أو ثمانية، صامتين مبهورين، تتجه أنظارنا نحو أفريقيا البعيدة التى نرغب فى الذهاب إليها. بدأ القبطان الذى يدخل سيجاراً ضخماً بالحديث فقال:

- نعم، شعرت بالخوف الشديد. سفينتى توقفت لمدة ست ساعات تعانى من الصخرة التى اصطدمنا بها فى عرض البحر. من حسن الحظ أننا التقينا فى المساء الباخرة الإنجليزية التى لمحتنا. كان بينهم رجل ضخم له وجه ملتهب بأشعة الشمس، جاد صارم، من ضمن هؤلاء الذين يبدو على هيأتهم أنهم مروا ببلاد كثيرة بعيدة مجهولة وسط المخاطر المتعاقبة. الخبرات الطويلة التى اكتسبها فى أسفاره واضحة فى نظرات عينيه.

كان من بين المستمعين رجل صامت طوال الرحلة ثم قال لأول مرة:

- قلت سيدى القبطان أنك شعرت بالخوف لكنى لا أصدق ذلك. لقد أخطأت فى التعبير أو أخطأت فى تفسير مشاعرك. الرجل النشيط لا يشعر بالخوف فى مواجهة الأخطار. قد يكون اضطراب لكن الخوف شىء آخر.

قال القبطان:

- قلت لك شعرت بخوف حقيقى.

قال المسافر الضخم بهدوء:

- اسمح لى أن أعبر لك عن رأىى. الخوف (و أقوى الرجال يشعرون بالخوف) هو شىء مرعب، إحساس مروع مثل تمزق الروح أو توقف العقل والقلب فتشعر بالضياع. لكن هذا لا يحدث عندما يكون الإنسان شجاعاً. لا نشعر بالخوف أمام المواجهات ولا أمام الموت ولا أمام أية مشاكل مهما كانت. لا نشعر بالخوف إلا عند مواجهة ظواهر غامضة مجهولة. هذا هو الخوف الحقيقى. لا يشعر بهذا إلا الرجل الذى يعتقد فى وجود الأشباح ويراها أثناء الليل.

أنا شعرت بالخوف أثناء النهار منذ عشر سنوات تقريباً. وشعرت به مرة أخرى فى الشتاء الماضى فى إحدى ليال ديسمبر. رغم أننى واجهت مشاكل كثيرة مميتة. فى إحدى المرات تركنى اللصوص لأموت وحيداً فى الطريق. حكموا على بالاعدام فى أمريكا. و مرة أخرى ألقوا بى فى المحيط الهندى. فى كل مرة كنت أعتقد أنها نهايتى، أفقد صوابى وأى أمل فى النجاة لكن ليس هذا هو الخوف.

شعرت بالخوف فى أفريقيا، ابنة الشمس التى تبتد الضباب. لاحظوا ذلك جيداً يا سادة. عند الشرقيين الحياة لا تعني شيئاً. نناقش هذه الأمور باستمرار. الليال صافية وخالية من أية أساطير والأرواح أيضاً خالية من أية أفكار غامضة مثل تلك التى تجهد العقل فى البلاد الباردة. فى الشرق قد نعلم الذعر ونجهل الخوف.

هذا هو ما حدث لى فى أرض أفريقيا.

كنت أعبّر الكثبان الرملية فى جنوب «كارجلا». إنها من أغرب بلدان العالم. تعلمون الرمال على شواطئ المحيط؟ حسناً، تخيلوا المحيط نفسه تحول إلى رمال وسط عاصفة هوجاء. تخيلوا عاصفة صامتة من الأمواج الثابتة من الرمال الصفراء. الأمواج ضخمة مثل الجبال، موجات غير متساوية

ترتفع مثل الشلالات، بل أكثر من ذلك. فى هذا البحر المرعب، الصامت الثابت، تكون أشعة الشمس حارقة ومباشرة. يجب تسلق هذه الموجات الذهبية، ما أن نهبط حتى نتسلق موجة أخرى. هكذا بدون أية لحظة لالتقاط الأنفاس ودون أن يكون حولك أية ظلال، الأحصنة تنغرس فى الرمال الناعمة حتى ركبتها وهى تجاهد لاخترق الوديان.

كنا صديقين و معنا ثمانية فرسان وأربعة جمال مع أربعة رجال لرعاية الجمال. لا نتحدث مع بعضنا أبداً، نعانى الإرهاق و الحرارة الشديدة. أفواهنا جافة من العطش مثل هذه الصحراء القاسية. فجأة صرخ أحد الرجال بطريقة غريبة وتوقف الجميع. بقينا ثابتين مذهولين بهذه الظاهرة المعروفة من المسافرين فى هذه البلاد الضائعة.

سمعنا بالقرب منا، من اتجاه غير محدد، دقات الطبول. طبول غامضة من الرمال الناعمة. أحياناً تكون الدقات قوية جداً وأحياناً ضعيفة ثم تتوقف بضع لحظات وتعود مرة أخرى. العرب الذين معنا راحوا يتبادلون النظرات فى رعب. قال أحدهم: الموت حولنا. وفجأة سقط صديقى الذى كنت أعتبره مثل أذى من فوق الحصان بضربة الشمس.

حاولت إنقاذ صديقى لمدة ساعتين دون جدوى. الطبول
مازالت تقرع بصورة مرعبة غامضة، تصم أذنىّ. شعرت
بالخوف يتسلل فى كل جسدى حتى وصل إلى العظم، خوف
حقيقى وأنا أقف أمام جثة شخص عزيز. دفنا صديقى فى
حفرة غامضة بين أربعة تلال، تحت أشعة الشمس الحارقة،
بعيداً عن بلادنا فرنسا حوالى مائتى فرسخ. تركناه وسط
دقات الطبول السريعة.

فى هذا اليوم عرفت معنى كلمة الخوف و شعرت بمثل
هذا الشعور مرة أخرى...

اندفع القبطان يسأل:

- عفوا سيدي، لكن هذه الطبول، ما حكايتها؟

قال المسافر:

- لا أعلم عنها شيئاً، ولا أحد يعرف تفسيراً لذلك. الضباط
يعرفون هذا الصوت الغامض. يقولون إنه تردد لصدى الصوت
الذى يتضخم عبر الكثبان الرملية. يقولون أن الصوت يأتى
من اصطدام حصوات الرمل بالنباتات البرية الجافة، لأنهم
يلاحظون أن هذه الظاهرة لا تحدث إلا فى الوديان الملتهبة
بالشمس. إذاً هذه الطبول هى نوع من السراب. هذا هو
التفسير الوحيد ولم أعلم ذلك إلا فيما بعد.

الآن سأقص لكم الحكاية الأخرى.

حدثت فى الشتاء الماضى، فى غابة تقع فى شمال شرق فرنسا. هبط الليل قبل موعده بساعتين لأن السماء مبلدة بالغيوم. كان مرشدى القروى يسير بجوارى عبر طريق ضيق جداً وسط الأشجار بينما الرياح تزمجر. من بين قمم الأشجار رأيت السحب تتحرك بسرعة كأنها تجرى هرباً من الأحوال. من حين لآخر، بتأثير من الهواء العاصف تتحنى الأشجار فى اتجاه واحد. البرد يخترقنى رغم خطواتى السريعة وملابسى الثقيلة.

يجب تناول العشاء و النوم فى بيت حارس الغابة الذى يسكن بالقرب من هنا. كنت أذهب إلى هناك للصيد.

مرشدى يرفع عينيه إلى السماء من حين لآخر ويغمغم: الجو حزين جداً. ثم حدثت عن سكان المنزل الذى سنصل إليه. الأب قتل صياداً مخالفاً منذ عامين. منذ هذه الحادثة أصبح كئيباً مثقلاً بهذه الذكرى. ولداه متزوجان وقيمان معه.

الظلام كان كثيفاً. لا أرى شيئاً أمامى ولا حولي بينما كل فروع الأشجار ترتجف من الرياح الشديدة. أخيراً لمحت الضوء ودق المرشد على الباب ثم سمعنا صوتاً يرتعش يسأل: من الطارق؟ أفصح المرشد عن نفسه ودخلنا. رأيت مشهداً لا أستطيع نسيانه أبداً.

رجل عجوز أشيب الشعر نظراته مجنونة، يحمل البندقية المشحونة بالذخيرة. انتظرنا واقفين وسط المطبخ بينما كان هناك شابان طافحان بالصحة يتسلح كل منهما بالبطاة، يحرسان الباب. لمحت فى الركن المعتم سيدتين يجلسان على ركبتيهما، وجهيهما نحو الحائط.

بدأوا فى تفسير الموقف. العجوز وضع سلاحه بجوار الحائط و أمر بإعداد حجرتى. ولأن السيدتين لم تتحركا قال لى فجأة:

- كما تعلم يا سيدى قتلت رجلاً منذ عامين فى مثل هذه الليلة. فى العام التالى أتى هنا و نادانى. واللييلة أنا أسمع.

ثم أضاف بلهجة جعلتلى أضحك:

- لهذا لا نشعر بالراحة.

عبرت له بقدر استطاعتى عن سعادتى للوصول هنا فى اللييلة المناسبة لمعاينة هذا المشهد المرعب. ورحت أقص عليهم النوادر محاولاً تهدئة الجميع.

كان هناك كلب بالقرب من الشعلة. أعمى تقريباً و له شارب كثيف. كلب يشبه بعض الناس الذين نعرفهم. ينام فوق سيقانه.

فى الخارج، العاصفة تضرب البيت الصغير. فى الباب فتحة صغيرة لمراقبة ما بالخارج. من هذه الفتحة رأيت الأشجار تتلألأ تحت ضوء البرق.

رغم كل محاولاتى لكنى لاحظت الرعب الشديد الذى يصيب هؤلاء الناس. كل الأذان تتنصت عما يحدث من بعيد. كنت سأطلب منهم الذهاب للنوم لكن الحارس العجوز قفز فجأة من مقعده. قبض على سلاحه و هو يقول بصوت مفزوع: إنه هو، إنه هو، أسمع.

سقطت السيدتان راكعتين فى الركن وهما يخفيان وجهيهما وقبض الولدان على البلطة. حاولت مرة أخرى تهدئتهم لكن الكلب استيقظ فجأة. رفع رأسه وراح يرقب النيران بعينيه الملتهبه ثم راح ينبح فى فزع حتى جعل المسافرين يرتجفون فى كل البلدة. كل الأنظار اتجهت إليه وراح الكلب يوجه نباحه نحو شىء ما خفى، شىء مجهول، مرعب بالتأكيد لأن كل شعره انتفض فجأة. الحارس الشاحب صرخ: إنه يشعر به، يشعر به، قتلته فى هذا المكان. وراحت السيدتان تصرخان مع الكلب.

سرت الرعشة فى أكتافى رغماً عنى. مشهد الكلب فى هذا المكان فى هذه الساعة وسط أناس ضائعين، كل هذا آثار ذعرى.

ظل الكلب ينبح لمدة ساعة دون أن يتحرك، يصرخ كأنه يعاني كابوساً مزعجاً و تغلغل الخوف فى أعماقى. الخوف من ماذا؟ لا أعرف. إنه الخوف.

وقفنا ضائعين ثابتين فى انتظار حادثة مروعة، الأذان صاغية، القلوب مضطربة، نرتجف لأضعف صوت وراح الكلب يدور فى المكان وهو يتشمم الجدران ويرتجف. هذا الحيوان أصابنا بالجنون. مرشدى فقد صوابه وقبض على الكلب بكل غلظة وفتح الباب وألقاه إلي الخارج.

صمت الكلب و سقطنا فى صمت مرعب أكثر من ذى قبل. ارتجفنا جميعاً، شعرنا بكائن ما يتمسح على الجدران من الخارج، ثم اتجه إلى الباب و بدا كأنه يريد فتحه بيد مرتجفة. ثم ظهرت فجأة رأس من خلال النافذة. رأس بيضاء ونظرات براقية مشتعلة. يخرج من فمه صوت مفعم بالشكوى والألم.

فجأة أتت الصرخة مدوية من المطبخ. الحارس العجوز أطلق النيران بينما الولدان هبطا بالبطاة على المنضدة.

أقسم لكم أننى لم أسمع فى حياتى مثل فرقعة هذه الطلقة. شعرت بألم شديد فى قلبى وروحى وجسدى. كنت على وشك الموت من الرعب.

بقينا حتى الفجر عاجزين عن الحركة، عن الكلام.
مذهولين .

لم يستطع أى منا الخروج من المنزل إلا بعد أن رأينا أشعة
الشمس من النافذة. رأينا على مدخل الباب الكلب مصاباً فى
وجهه بالطلق النارى.

فى هذه الليلة لم أواجه أية مخاطر لكنى شعرت بالخوف
الحقيقى.



مزحة النورماندى

الموكب يتقدم على الطريق المحفوف بالأشجار الضخمة بين الحقول. العروسان فى المقدمة ثم الأهل ثم المدعوون ثم فقراء البلدة ثم المتطفلون الذين يلتفون حول الموكب مثل الذباب المتساقط. بعض المتطفلين يدخل بين المدعويين والبعض الآخر يتسلق الأشجار ليرى أفضل.

العريس شاب وسيم، «جون باتى»، أغنى إقطاعى فى البلاد. بالإضافة إلى أنه صياد فظ، لا يستطيع كبت غريزة الصيد أبداً. ينفق الكثير على نفسه و كلابه وحراسه وأملاكه وسلاحه.

العروس هى «روزارى روسال»، تقدم للزواج بها الكثير من شباب المنطقة لأنها جذابة من ناحية ولأن أهلها الأثرياء سيدفعون مبلغاً كبيراً للعريس. لكنها اختارت «باتى»، ربما لأنه يروق لها أكثر من الآخرين لكن من المؤكد لأنه الأغنى.

بينما الموكب يدور حول منزل الزوجية دوت الأربعون طلقة من الحراس المندسين بين الأشجار. دوى الطلقات أثار البهجة فى النفوس وراح الرجال يرتجفون من النشوة وهم يرتدون الثياب الأنيقة. أما «باتى» ترك عروسه و قفز فوق إحدى الأشجار وأطلق النيران ثم عاد قفزاً مثل كتكوت صغير.

استكمل الموكب طريقه تحت أشجار التفاح المثقلة بالفاكهة
بينما كانت الأبقار ترعى خلف الأشجار وهى ترقب الموكب.

اكتست وجوه الرجال بالصرامة وهم يقتربون من الوليمة.
الأثرياء منهم يرتدون قبعات مرتفعة من الحرير البراق
والآخرون يرتدون ملابساً قديمة طويلة من الصوف تشبه جلد
الخلدة والأكثر تواضعاً يرتدى طاقية بسيطة.

كل النساء يضعن الشال على الأكتاف ويضمونه بأيديهن
بطريقة استعراضية. الشال من اللون الأحمر بدرجاته المختلفة،
ألوانه الزاهية تثير غيرة الكتاكت وعصافير الكناريا وكل
الطيور الملونة الأخرى.

الأخضر بكل درجاته من الأشجار و الأعشاب فى الحقول
يمتزج مع هذا اللون القرمزى و الكل يتلألأ تحت ضياء الشمس
ليرهق العيون.

بدت الدار الكبيرة خلف أشجار التفاح. الدخان يتصاعد
من الأبواب و النوافذ يسرى فى المكان كله. الرائحة تتم عن
أطعمة شهية فاخرة.

اتخذ الموكب الشكل الثعبانى عندما وصل إلى الفناء.
الأوائل دخلوا الدار والباقيون فى الحديقة والآخرون على

البوابة. الحفر الصغيرة حول المكان امتلأت الآن بالصعاليك والفقراء المتطفلين. الطلقات النارية لا تهدأ أبداً. الفرقعات تأتي من كل مكان فينتشر تراب البارود الأبيض.

يقف النساء بجوار الباب وهن يضربن ثيابهن لتتظيفها من تراب البارود، ينظفن الشرائط المحاطة بالقبعات ثم يعدلن من هندامهن ويعدن الشال على الأكتاف، لا يدخلن من الباب إلا بعد أن يتأكدن تماماً من زينتهن.

مُدت المائدة التي تتسع لمائة شخص في المطبخ الكبير. بدأت الوليمة في الثانية ظهراً و ظل الناس يلوكون الطعام حتى الثامنة مساءً. بدأ الرجال يفكون أزرار القميص بعد أن احمرت وجوههم وانتفخت. خمر التفاح الأخضر يتلألاً، منعش، ذهبي اللون في الكاسات و بجواره النبيذ الفاتح و الداكن في لون الدم.

على الطاولة توجد حفرة صغيرة خلف كل طبق، حسب العادة في النورماندى، في كل حفرة نجد زجاجة الخمر الذى يلهب الجسد و يثير الرؤوس.

من حين لآخر يخرج أحد المدعوين منتفخاً مثل البرميل ليتقيأ خلف الأشجار القريبة ثم يعود وهو يشعر بالجوع أكثر من ذى قبل. الفلاحات انتفخن مثل البالونات لكن بقين على المنضدة في حرص وخجل. ثم قفزت إحداهن لتتقيأ وجرى

خلفها بقية النساء. عدن أكثر بهجة يضحكن. وبدأت النكات الخليعة. كل النكات تتحدث عن العلاقة الزوجية وخاصة فى ليلة الدخلة. نكات قديمة تتردد من مئات السنين وتُقال دائماً فى نفس المناسبة، ورغم ذلك الكل يضحك فى جنون.

هب رجل عجوز رمادى الشعر وقال: المتجهون إلى البيت يفضلون بالدخول. ودبت صيحات البهجة.

بدأ الخدم يللمون المائدة و فجأة صرخ أحد المدعويين:

- الصيادون المخالفون يستفيدون من هذه الليلة تحت ضوء القمر. قل لى يا «جون»، أليس هذا هو القمر الذى تترقبه؟
العريس التفت و قال:

- تقول من؟ الصيادون المخالفون؟

قال العجوز و هو يضحك:

- نعم، يستطيعون الحضور إلى هنا الليلة و ممارسة الصيد فى مزرعتك. لن تترك مهمتك الليلة من أجلهم.

انفجر كل المدعويين من الضحك حتى انفجرت الأرض واهتز الزجاج. لكن العريس استشاط غضباً من فكرة أن يستغل المخالفون هذه المناسبة و يصطادون فى مزرعته، فقال بوحشية:

- لن يستطيع أحد فعل ذلك.

انهمرت الانتقادات و الكلمات الخليعة فى كل اتجاه حتى أن العروس ارتبكت و احمر وجهها خجلاً.

بعد أن شربوا كثيراً بدأوا فى الانسحاب الواحد تلو الآخر إلى غرف النوم. العروسان اتجها إلى حجرتهما الموجودة فى الطابق الأرضى مثل كل حجرات النوم فى الريف. لأن الحرارة كانت مرتفعة قليلاً فتحا النافذة وأغلقا الستائر.

كانت هناك لمبة قديمة، مهداه من والد العروس، مشتعلة فوق المنضدة و الفراش جاهز لاستقبال العروسين اللذين لم يحتضن أحدهما الآخر طوال حفل الزواج البورجوازى.

بدأت العروس فى رفع زينتها و خلعت حذاءها بينما «جون» يدخن السيجار ويرقبها بنظرات ملتهبة حانية. يعترف فى داخله أنه لا يحبها لكنه هب واقفاً فجأة واتخذ هيئة صارمة مثل الرجل الذى يهتم بعمله و خلع ثيابه.

كانت العروس قد انتهت من خلع حذاءها وبدأت الآن فى خلع الجوارب ثم قالت بصوت طفولى: اذهب خلف الستائر حتى أذهب إلى الفراش.

اعترض فى لباقة ثم اختفى خلف الستائر وهو يطل بوجهه فى فضول بينما العروس تضحك و هى تحاول الاختفاء من عينيه. انسابت آخر قطعة من ملابسها حول ساقها وسقطت على الأرض وبدت متلألئة عارية وهى بداخل ملابس النوم الشفافة واتجهت إلى الفراش.

تقدم وهو يخلع البنطلون واستلقى بجوار عروسه، قبلها فى أذنيها، وفى هذه اللحظة سمع الطلق النارى يأتى من بعيد، من الغابة، هذا ما بدا له.

هب واقفاً و اتجه نحو النافذة وأزاح الستائر. القمر يرسل أشعته الصفراء على الفناء. أشجار التفاح تلقى بظلالها وتبدو القرية من بعيد حيث مساكن الفلاحين.

ألقى بجسده خارج النافذة يرقب المكان. شعر بذراعين يلتفان حول عنقه. عروسه تداعبه و تجذبه للخلف وهى تغمغم: لا تشغل بالك.

عادا إلى الفراش و هو يحملها بذراعيه القوية الفتية. وما أن استلقيا فى الفراش حتى عادت الطلقات النارية.

استشاط «جون» غضباً وراح يسب و يلعن ثم قال: هل يعتقدون أننى لن أخرج لهم بسبيك؟ انتظروا... انتظروا...

هب واقفًا وأخذ سلاحه المعلق خلف الباب بينما عروسه
تركع تحت قدميه ترجوه بعدم الخروج. لكنه تركها وجرى إلى
النافذه وقفز إلى الفناء.

انتظرت لمدة ساعة، ساعتين، إلى أن سطع النهار. لم يعد
العريس. فقدت صوابها وراحت تقص للناس ما حدث.
بدأ الناس يتحركون بحثًا عنه، سيراً على الأقدام وبالعربات.
يجوبون المنطقة كلها .

عثروا عليه على بعد فرسخين من العزبة. مربوط من
قدميه حتى رأسه، نصف ميت من الرعب، سلاحه مكسور،
ملابسه ممزقه بينما هناك ثلاثة أرناب برية حول رقبتة ولافتة
على صدره مكتوب عليها: من يذهب للصيد يفقد مكانته.

بعد ذلك أصبحت هذه الحادثة مُزحة يرددنها الناس في
المنطقه وهم يقولون في سخرية: هكذا نستمتع بليلة الدخلة
في النورماندى.



صاحب الرفعة

كان الخورى يغمغم بالكلمات الأخيرة من عظته فوق الطرح البيضاء للفلاحات و الشعور الخشنة أو المدهونة للفلاحين. الفلاحات يضعن بجوارهن الحقائب الكبيرة التى آتين بها من أماكن بعيدة من أجل القداس. حرارة يوليو تثير القلق فى النفوس وتبعث برائحة الماشية فى المكان، رائحة القطيع. صيحات الدجاج تآتى من البوابة الضخمة المفتوحة، وأيضاً صيحات الأبقار التى ترعى فى الحقول. أحياناً تهب نسمة هواء محملة برائحة الحقول فتتطاير أشربة الزينة وترتجف الشعلات الصفراء للشموع فوق المذبح.

أعلن الخورى: هذه هى إرادة الرب. ثم صمت برهة وفتح الدفتر الذى أمامه و لم يجد إلا ورقتين فقط. يدون فى هذا الدفتر الأعمال الصغيرة المتعلقة بخدمة المجتمع ليعلمها امام الجميع.

إنه رجل عجوز أشيب يقوم بأعمال الكنيسة منذ أربعين عاماً. بأسلوبه المجامل أصبحت كل العائلات تعتبره فرداً منها.

قال الخورى: أطلب منكم الصلاة من أجل «فالى» الذى يعانى من مرض شديد. وأيضاً من أجل «بومال» الذى لا يغادر فراشه.

لم يجد الخورى أعمالاً أخرى لمطالبتهم بها، بحث فى الأوراق أمامه ثم قال: لا يجب أن يخرج الأولاد والبنات إلى المقابر فى المساء لأنهم يقومون بأعمال فاضحة. لو استمر هذا الحال سأخبر الغفر لعمل اللازم.

ثم أكمل: السيد «أومون» يبحث عن فتاة صغيرة شريفة لتعمل لديه خادمة.

فكر الخورى بضع لحظات ثم أكمل:

- هذا هو كل ما أطلبه منكم. أتمنى لكم الخير و أصلى من أجلكم.

ثم هبط من كرسيه ليتمم القداس.

عادت أسرة «مالوندا» إلى كوخها فى نهاية الكفر. جلس الأب الذى كان فلاحاً جافاً متجعداً على المنضدة بينما راحت زوجته تعد الطعام و ابنته «أديلايد» تضع الأكواب والأطباق. قال الأب: العمل عند السيد «أومون» قد يكون فرصة جيدة، إنه أرمل، خدمته بسيطة لأنه يعيش وحيداً. أعتقد أنه من المناسب أن نرسل «أديلايد» للعمل هناك.

وضعت الزوجة الإناء المتسخ بالسواد على المائدة، رفعت الغطاء فاندفعت رائحة الكرب وهى تفكر فى الأمر. أكمل الرجل:

- إنه عصبى المزاج، هذا مؤكد، لكنها مجرد نزهة بسيطة
و «أديلايد» لن تكون مجرد قشة.

علقت الزوجة قائلة:

- ومع ذلك يجب أن أرى كل شيء بنفسى.

ثم التفتت إلى ابنتها، بدينة غبية، شقراء، وجنتاها حمران
فى لون التفاح. ثم صرخت:

- هل تسمعين أيتها الغبية، ستذهبن إلى السيد «أومون»
لتعملين خادمة و ستفعلين كل ما يطلبه منك.

ضحكت الفتاة دون أن تقول شيئاً ثم انهمك الثلاثة فى
تناول الطعام.

بعد عشر دقائق قال الأب:

- اسمعى أيتها الغبية، لا يجب أن تفعلى أى خطأ، انتبهى
لكل ما سأقوله لك الآن...

ثم راح يلقتها بهدوء كل قواعد السلوك، يشرح لها أدق
التفاصيل و هو يعدها لمهمة خدمة عجوز أرمل مشهور بالمعاملة
الفضة مع أسرته. توقفت الأم عن الطعام للاستماع، ظلت
الشوكة معلقة فى يديها و هى تدير عينيها بين زوجها و ابنتها.

بعد الطعام وضعت الطرحة على رأس ابنتها و اتجهت بها إلى السيد «أومون». إنه يقيم في بيت صغير من الطوب بجوار مساكن الفلاحين الذين يعملون في أرضه، ويعيش من ريع هذه الأرض. إنه في الخامسة والخمسين من عمره. ضخم، مرح، وفظ مثل كل الأثرياء. ضحكاته وصرخاته تسقط الجدران. يسرف في الشراب حتى الثمالة و يبدو نشيطاً جداً رغم سنه. يحب التجول في الحقول وهو يضع يديه خلف ظهره، يغوص في الطين وهو يتأمل المحصول بابتهاج لكنه لا يعمل في الأرض أبداً. يقولون إنه أب جيد لكنه لا يكون مهذباً كل الأيام. استقبل السيد «أومون» السيدتين وهو يتناول القهوة. تأملهما ثم قال:

- ماذا تريدان؟

اندفعت الأم قائلة:

- إنها ابنتنا «أديلايد». أرغب في تقديمها لك خادمة، على حسب ما علمنا هذا الصباح من الخورى.

تفحص الفتاة بدقة ثم سألت:

- كم عمر هذه الصخرة؟

- عشرون عاماً سيدي.

- هذا جيد. سأدفع لها خمسة عشر فرنك فى الشهر بالإضافة إلى الطعام. أنتظرها فى الصباح لإعداد الإفطار. قال ذلك و هو يتفحص السيدتين. بدأت «أديلايد» العمل فى اليوم التالى. تعمل بكل جدية وصرامة دون أن تقول شيئاً، هكذا كانت تعمل فى منزل أهلها.

فى التاسعة صباحاً، وهى تنظف الأوانى فى المطبخ، صرخ السيد «أومون»:

- «أديلايد».

جرت وهى تقول:

- ها أنا سيدي.

تفحص يديها الحمراء الممتلئة ونظراتها المضطربة فأعلن: اسمعيني جيداً حتى لا يحدث بيننا أى خلاف. أنت خادمة ولست أكثر من ذلك. الفارق بيننا كبير فى المكانة ولا يجب أن تتعدى حدود اللياقة أبداً.

- نعم سيدي.

- لكل منا مكانه. أنت فى المطبخ وأنا فى الصالة. ما عدا ذلك كل شىء مشترك بيننا. مفهوم.

- نعم سيدى.

- حسناً، هيا اذهبى لعملك.

فى الثانية عشرة ظهراً بدأت فى إعداد الغذاء فى الصالة الصغيرة. بعد أن تأكدت من حسن نظام المائدة اتجهت إلى السيد «أومون» وقالت:

- المائدة جاهزة سيدى.

بعد أن تفحص المائدة بدقة صرخ بصوت مثل الرعد:

- «أديلايد».

أنت مرتجفة. صرخ السيد و هو يلعن الرب ثم قال:

- و أنت أين مكانك؟

- لكن سيدى...

صرخ:

- لا أحب أن أكل بمفردى. يجب أن تأكلى معى أو اذهبى

إلى الجحيم. هيا احضرى طبقك و كوبك.

نفذت الأمر مزعورة ثم جلست تأكل أمامه. هكذا ابتهج السيد وراح يلوك الطعام و هو يطبل على المائدة. يقص عليها الحكايات بينما هي تستمع و هي تغض بصرها دون أن تقول أية كلمة. تقوم من حين إلى آخر لإحضار الخبز أو زجاجة الخمر أو أطباق أخرى نظيفة.

وهي تعد القهوة وضعت أمامه فنجاناً واحداً فعاد إلى غضبه صارخاً:

- و أنت؟

- أنا لا أشرب القهوة أبداً سيدي؟

- لماذا؟

- لا أحب القهوة.

انفجر صارخاً و هو يلعن الرب:

- لا أحب أن أشرب القهوة بمفردي. إن لم تشربى معى القهوة اذهبي إلى الجحيم. احضرى فنجان قهوة لك بسرعة. أحضرت الفنجان وجلست تحتسى القهوة وهي ترتجف من مذاقها المر، لكن تحت نظراته المخيفة شربت الفنجان حتى آخر قطرة.

ثم حدث نفس الشيء عندما حان موعد الخمر. اضطرت
لشرب الكأس الأول و الثانى و الثالث ثم قال:

- الآن اذهبى لغسيل الأطباق و الأكواب. أنت فتاة جيدة.
ثم أمرها:

- اذهبى للنوم وأنا سأذهب إلى حجرتى الآن...

كانت حجرتها الصغيرة الحقيبة تحت السقف. أدت صلاتها
اليومية و بدلت ثيابها ثم انزلت تحت الفراش. ثم قفزت فجأة
ترتجف. صرخة رهيبة رجت جدران المنزل:

- «أديلايد»

قالت وهى على باب حجرتها:

- تحت أمرك سيدى.

- أين أنت؟

- أنا فى فراشى سيدى.

لعن الرب ثم صرخ فى همجية:

- ألا تهبطين؟ أنا لا أحب أن أنام بمفردى، وإلا فلتذهبى

للجحيم.

أجابت بصوت مرتفع و هى تبحث عن الشمعدان:

- ها أنا سيدى.

سمع صوت خطواتها وهى تهبط الدرج، عندما وصلت إلى الدرجة الأخيرة احتضنها ثم دفعها إلى داخل الحجرة وهو يلعن الرب. ثم قال:

- يجب أن تكونى أسرع من ذلك.

رددت عدة مرات دون أن تدرى ما تقول:

- تحت أمرك سيدى.

بعد ستة أشهر ذهبت لزيارة أهلها. تفحصها الأب ثم قال:

- أصبحت سمينة.

قالت و هى تنظر إلى بطنها بغباء:

- لا أعتقد.

بدأ الأب فى استجوابها ليعرف الحقيقة سألها:

- هل السيد يرفع الكلفة بينكما؟

- نعم، فى الليلة الأولى والليالى التالية.

- أنت حامل أيتها البرميل الضخم.

بكت وهى تقول:

- أعرف.. أعرف.

قال الأب مسروراً:

- أنت لا تعرفين شيئاً.

قالت من بين دموعها:

- أعلم أن هكذا يأتى الأطفال.

دخلت الأم و قال الأب دون غضب:

- هكذا أصبحت حامل.

ثارت الأم في وجه ابنتها الباكية وهى تتهمها بالفسق والفجور بينما ظل الأب صامتاً وهو يضع قبعته ويستعد للخروج للتفاوض مع السيد «أومون». قال له:

- ابنتى لا تعلم شيئاً و لا تعرف ما فعلته.

وفى يوم الأحد التالى أعلن الخورى العجوز استدعاء السيد «أومون» لمناقشته فى قضية «أديلايد».



المنجدة

أقام الماركيز «برتان» حفل عشاء بمناسبة افتتاح موسم الصيد. التف حول المائدة العامرة بالفاكهة والزهور اثنا عشر صياداً وثمانى نساء صغيرات و طبيب البلدة.

تحدثوا عن الحب واشتعلت المناقشة. الحوار الأبدى لمعرفة إذا كان الحب الحقيقى يحدث مرة واحدة فقط أم يحدث عدة مرات. قدموا أمثلة عن بعض الناس لم تستطع الحب إلا مرة واحدة فقط وقدموا أمثلة أخرى عن أناس أحبوا بعنف مرات كثيرة.

بصفة عامة، الرجال يعتقدون أن الحب مثل المرض، قد يصيب نفس الإنسان عدة مرات وهو مرض عنيف، قد يكون قاتلاً لو كانت هناك بعض العقبات. بينما كانت كل ملاحظات النساء حول الأشعار و الروايات العاطفية ليؤكدن أن الحب الحقيقى لا يحدث إلا مرة واحدة ويستمر حتى نهاية العمر، يفنى كل من الحبيبين فى الآخر، وإذا مات أحدهما يظل الآخر وفياتاً للنهية ويعيش بقية حياته خاوياً بدون أية مشاعر ولا حتى أحلام.

الماركيز الذى أحب كثيراً دافع عن رأيه قائلاً:

- قلت لكم نستطيع الحب بكل قوة و عنف مرات كثيرة. نتحدثون عن أناس ماتوا من الحب كأنه دليل على أن الحب لا يحدث إلا مرة واحدة فقط. أقول لكم لو أن هؤلاء لم يفعلوا حماقة الانتحار واستمروا فى الحياة سيشفون من المرض ويعودون إلى الحب مرة أخرى. الإنسان يخرج من حب إلى حب حتى نهاية حياته. بعض المحبين مثل السكارى. المسألة تتعلق بطباع الإنسان.

جعلوا الطبيب حكماً. إنه طبيب عجوز من «باريس» منفى إلى الريف. طلبوا معرفة رأيه فقال:

- كما قال الماركيز، الموضوع يتوقف على طباع الإنسان. بالنسبة لى أعلم حباً استمر لمدة خمسة وخمسين عاماً دون التوقف لحظة واحدة و لم ينته هذا الحب إلا بالموت.

صفت زوجة الماركيز بيدها وهى تقول:

- هذا شئ رائع. حلم جميل. يالها من سعادة أن نستمر فى الحب لمدة خمسة وخمسين عاماً غارقين فى الدفء والأمان. هذا هو أسلوب الحياة الذى نبحت عنه دائماً. هذا الرجل يجب أن يحمد ربه حتى نهاية حياته.

ابتسم الطبيب و قال:

- بالفعل سيدتى، المحبوب كان رجلاً. تعرفونه، إنه السيد «شوكى»، صيدلى البلدة. أما هى تعرفونها أيضاً، إنها مُنجدة المقاعد التى تأتى كل عام إلى القصر. لكن يجب أن تتفهمون الموضوع جيداً. لقد أُغتيل فرح هذه السيدة و أصبحت شاحبة، كما لو أن الحب لا يصيب إلا الضعفاء والمساكين.

استكمل الطبيب:

- تم استدعائى منذ ثلاثة أشهر لفحص هذه السيدة العجوز وهى على فراش الموت. وصلت إلى المستشفى بعريبتها التى تستخدمها منزل أيضاً، والعربة يجرها الفرس الكسول الذى رأيتموه، مصحوبة بكلبين أسودين وبعض الأصدقاء والحراس. كان الخورى حاضراً. قالت لنا وصيتها، ولكى تجعلنا نشعر بأهمية الوصية قصت لنا كل حياتها. لم أسمع فى حياتى قصة مؤلمة أكثر من ذلك.

والدها مُجد ووالدتها مُنجدة. لم يكن لها بيت أبداً. منذ نعومة أظافرها وهى رثة الثياب، هائمة، مكروهة. أهلها يتوقفون على مداخل القرى بجوار الحفر، بين العربات والخيول والكلاب الضالة. تتجول الصغيرة فى الحقول بينما الأب والأم

يعملان فى تنجيد كل الأثاث القديم فى المنطقة. لا يتحدثون أبداً فيما بينهم. بعد الكلمات الضرورية فى الصيحة المعتادة: نوجد المقاعد. يجلسان على القش و ينهمكان فى العمل. بالنسبة للطفلة تذهب بعيداً و تدخل فى علاقة مع بعض صبيان القرية. ثم يصرخ الأب قائلاً فى غضب: ألا تجلسين بجوارنا أيتها الفاجرة. لم تسمع من والدها شيئاً إلا هذه الجملة.

بعد أن كبرت قليلاً يرسلونها للقيام بأعمال التنجيد عند أصحاب المزارع الطماعين، وبدأت فى الاختلاط بالصبيان الوقحين، لكن فى هذه السن المبكرة ينادى الأهل على الصبيان ويلومونهم على التحدث مع هذه الحافية.

فى الغالب، الأولاد الأكبر يلقونها بالحجارة. بعض النساء يمنحونها بضعة مليمات تحتفظ بها كأنها ثروة كبيرة.

فى ذات يوم، عندما كانت فى الحادية عشرة من العمر، التقت خلف المقابر الصغير «شوكى» الذى كان ييكى لأن أحد أصدقائه سرق منه بعض المال. تأثرت لدموع هذا البورجوازى الصغير. رأت أنه صغير جداً على هذه المعاناة و يجب أن يستمتع بكل لحظة فى حياته. اقتربت منه و عندما علمت بسبب حزنه وضعت فى يده كل مدخراتها، سبعة مليمات. أخذها «شوكى» ومسح دموعه. سعدت المنجدة الصغيرة كثيراً لسعادته و قبلته.

ولأنه كان مشغولاً جداً بالمال لم يهتم بما فعلته. لم يشعر بها ولم يتقزز منها مثل الآخرين ولم ينهرها. هكذا احتضنته بعمق وأخذته فى صدرها ثم فرت هاربة.

ما الذى حدث فى هذا الرأس البائس؟ هل تعلقت بهذا الطفل لأنها ضحت بثروتها من أجله أم لأنها منحتة أول قبلة حانية فى حياتها؟ الغموض نفسه عند الصغار والناضجين. ظلت تحلم بهذا الركن من المقبرة وهذا الصبى لعدة شهور. ولأنها تأمل رؤيته مرة أخرى راحت تسرق من أهلها مليمًا من هنا وآخر من هناك و تدس المليمات فى ثيابها.

عندما عادت أصبح لديها فرنكان. لمحت الصيدلى الصغير نظيفاً جداً فى متجر والده خلف الفتريينات المتلائة و بجواره وعاء أحمر. هذا المشهد لم يجعلها تحبه أكثر من ذى قبل، لقد أحبته بالفعل قبل ذلك. لم تحاول الاقتراب منه حتى لاتصيبه بالقاذورات التى حول جسدها.

لم تنس هذا اليوم أبداً.

وعندما التقته خلف المدرسة وهو يلعب الورق مع أصدقائه خطفته فى أحضانها وراحت تقبله بكل عنف حتى أنه صرخ من الرعب. لكى تحاول تهدأته منحتة ما معها من المال،

ثلاثة فرنكات. مبلغ صخم جداً حتى أن عيني الصبي تالأت بالدهشة. أخذته وراحت تربت عليه كيفما يحلو لها.

ظلت تمنحه كل أموالها لمدة أربع سنوات فى مقابل الاقتراب منه وتقيله والتربيت عليه. مرة تمنحه ثلاثين مليمًا و مرة فرنكين و مرة اثنى عشر مليمًا و هى تبكى و تعتذر لأن العام الماضى كان سيئاً جداً. آخر مرة منحته خمسة فرنكات، قطعة واحدة مستديرة وابتسم «شوكى» فى سعادة.

هى لا تفكر إلا به، وهو ينتظرها بصبر فيجرى نحوها وهذا يجعل قلب الفتاة الصغيرة ينتفض. ثم اختفى الصبى. بعد أن سألت عنه بحرص أدركت أن أهله أرسلوه إلى الجامعة. استكملت التجوال مع أهلها و يعودون إلى نفس المكان فى الإجازات. لم تلتقه إلا بعد عامين. لم تعرفه فى البداية لأنه تغير، كبر، تأنق، سترته تتزين بأزرار ذهبية. تجاهل وجودها تماماً، مر من أمامها بصرامة و جدية.

لم تبك لمدة يومين لكنها ظلت تعانى و تتألم حتى نهاية حياتها.

كل عام تأتى إلى هنا، تمر أمامه ولا تجرؤ على الحديث معه وهو لا يدير عينيه نحوها أبداً. تحبه بجنون. قالت لى:

سیدی الطیب، إنه الرجل الوحید الذی أراه على سطح الأرض
ولا أشعر بوجود أحد غیره.

أهلها ماتوا و هى استمرت فى نفس المهنة، لكنها اتخذت
كلین للحراسة بدلاً من واحد كما كان يحدث من قبل. أحد
الكلین شرس جداً ولا يهزمه أحد أبداً.

فى ذات يوم، و هى تدخل البلدة حيث تركت قلبها، لمحت
سيدة صغيرة تخرج من متجر «شوكى» و تتأبط ذراع حبيبها.
إنها زوجته.

فى هذه الليلة ألفت بنفسها فى المستقع الموجود أمام مكتب
المحافظة. مر بجوارها رجل ثمل و أشفق عليها. قادها الرجل إلى
صيدلية «شوكى» لتلقى العلاج. بدا كأنه لا يعرفها مطلقاً. خلع
ثيابها و ذلك جسدها ثم قدم لها العلاج وهو يقول:

- أنت مجنونة، لا يجب أن تكونى حمقاء بهذا الشكل.

هذا يكفى لعلاجها. لقد تحدث معها وغرقت فى السعادة
فترة طويلة. لا ترغب فى أموال أسرته بل ترغب فى أن تظل
تدفع له بالمال.

استمرت طوال حياتها على هذا الحال. تقوم بعملها فى
التجيد و هى تفكر به. تأتى إلى نفس البلدة كل عام لترقبه من

خلف الواجهة الزجاجية. اعتادت على شراء الأدوية منه لتتمكن من رؤيته عن قرب و تتحدث إليه و تمنحه المال.

وكما قلت لكم فى البداية، ماتت منذ عدة أيام بعد أن قصت لى حكايتها الحزينة. رجتنى و هى على فراش الموت أن أقدم كل ما تملك لمحبوبيها لأنها لا تعمل إلا من أجله. كل أملها أن يفكر بها لحظة واحدة بعد موتها.

أعطتنى ألفين و ثلاثمائة و سبعة و عشرين فرنكاً. دفعت للخورى سبعة و عشرين فرنكاً لمصاريف الدفن.

فى اليوم التالى ذهبت إلى أسرة «شوكى». دعونى لتناول الغذاء معهما. كان الزوجان طافحين بالصحة و السعادة. ثم قدما لى بعض الخمور للترحيب و رحى أقص لهم الحكاية بصوت حزين حتى أننى كنت على وشك البكاء.

عندما علم الصيدلى «شوكى» أن هذه الفجيرة الفقيرة الحقيقية كانت تحبه قفز فوق مقعده كأن هذا ينال من شرفه ومكانته الاجتماعية.

زوجته أيضاً غضبت كثيراً و هى تردد: هذه العاهرة! هذه العاهرة! هذه العاهرة! كأنها لا تجد كلمة أخرى تقولها.

هب السيد «شوكى» وراح يتجول حول المنضدة فى عصبية

ثم قال:

- هل تصدق ذلك؟ لو كنت أعلم ذلك أثناء حياتها لطلبت من

الشرطة القبض عليها وحبسها و لن تخرج من السجن أبداً .

فى هذة اللحظة ندمت على ما أقوم به لكن يجب استكمال

المشوار للنهاية . قلت:

- طلبت منى تقديم كل مدخرتها لك . المبلغ يصل إلى ألفين

و ثلاثمائة فرنك و لأننى ألاحظ غضبكما أقترح تقديم هذا

المال للفقراء .

راحا ينظران إلىّ فى تردد . أخرجت المال من جيبى و أنا أقول:

- ما قراركما؟

قالت الزوجة:

- أعتقد أن من الصعب رفض تنفيذ طلبها الأخير .

ثم أكمل السيد «شوكى»:

- نستطيع شراء بعض الأشياء لأولادنا بهذا المبلغ .

قلت بصوت مخنوق:

- كما تريدان.

ثم أكملت:

- طالما أنها ترغب فى العطاء، إذاً يجب استغلال الفرصة جيداً.
وضعت المال أمامهم و انصرفت.

فى اليوم التالى أتى إلى السيد «شوكى» وقال:

- لكن هذه السيدة تركت أيضاً هذه العربة. ماذا ستفعل بها؟
- لا شيء. خذها إن أردت.

- أنا فعلاً بحاجة إليها. سأصنع منها كوخاً فى حديقتى.

- تركت أيضاً حصانها العجوز والكلبين. هل تريدهما؟

قال مذهولاً:

- لا. ماذا أفعل بهم؟ تصرف بهم كيفما تشاء.

ضحك ثم مد يده مصافحاً وهو يقول:

- لا يجب أن يكون الطبيب و الصيدلى أعداء.

احتفظت بالكلاب عندي بينما الخورى الذى يملك حديقة
كبيرة أخذ الحصان أما العرية أصبحت كوخاً فى حديقة
«شوكى» و اشترى خمسة أسهم بالمال.

هذا هو الحب العميق الوحيد الذى صادفته فى حياتى.

صمت الطبيب برهة. قالت زوجة الماركيز وهى تبكى:

- يبدو أن النساء يعلمن الحب جيداً.



في البحر

قرأنا مؤخراً في الجرائد السطور التالية.

العنوان: «من بولونيا» من عرض البحر. تحت العنوان مكتوب: وقعت حادثة مروعة لم يحدث مثلها منذ عامين. اصطدم مركب الصيد، تحت قيادة «جافيل» بالصخور من الشرق والغرب وتحطم تماماً.

خبر آخر يقول: رغم كل محاولات سفن الإنقاذ ورجال الشرطة و الجيش، مات أربعة رجال والنوتى مخنوقين.

خبر ثالث يقول: مازال الطقس سيئاً و نخشى وقوع حوادث جديدة.

من هو «جافيل» مالك المركب؟ هل هو الأكتع؟

إذا كان هذا الرجل المسكين الذى غرق وسط الأمواج بين حطام مركبه هو الرجل الذى أعرفه، فلقد مر بمأساة مشابهة ومروعة منذ ثمانية عشر عاماً.

لأن «جافيل» هو الابن الأكبر أصبح هو رئيس مركب الصيد. كان المركب فى حالة جيدة جداً، صلب لمواجهة كل العواصف،

مستدير من الداخل، يبحر دون توقف، يخرق الأمواج بقوة، يواجه الرياح الشديدة المألحة لبحر المانش. دائماً أشرعته منتفخة و هو يجر خلفه شبكة كبيرة تغوص فى أعماق المحيط فيصطادون كل الأسماك المختفية بين الصخور وكل الأسماك الهائمة فى البحر والملتصقة بالرمال فى القاع. يصطادون سرطانات البحر الثقيلة والجمبرى الكبير ذا الشوارب المدبية.

فى هذا اليوم خرج المركب للصيد عندما كانت الرياح هادئة والأمواج منخفضة. الشبكة مثبتة حول عامود ضخم من الخشب المطفى بالحديد و يسقطونها فى البحر بواسطة حبلين سميكين ينزلقان حول عجلتين من جانبي المركب. يتحركون عن طريق الريح والتيار ويمسحون أرضية البحر بهذه الشبكة الحديثة.

أخو «جافيل» الأصغر يعمل معه فى المركب بالإضافة إلى أربعة رجال والنوتى. كان الجو صحواً مشمساً فى بداية الرحلة. ثم هبت عاصفة هوجاء دفعت المركب إلى الفرار. وصلوا إلى الشاطئ الإنجليزى لكن الأمواج العاتية تضرب الصخور بشدة وتمنعهم من دخول أى ميناء. عاد المركب إلى عرض البحر واقترب من الشاطئ الفرنسى لكن العاصفة أصبحت أشد قسوة، الأمواج تعاند و تمنع الاقتراب من الأرض. لكنه مركب عنيد ضخم قوى، ظل يتأرجح بين البلدين لمدة ستة أيام.

هدأت العاصفة قليلاً وهم فى عرض البحر، لكن الأمواج
مازالت قوية. أمر الرئيس بإلقاء الشبكة.

اتخذ الرجال أماكنهم. اثنان فى المقدمة واثنان فى الخلفية
وانزلقت الشبكة حول العجلات. عندما وصلت إلى العمق ارتج
المركب بموجة ضخمة. كان الأخ الأصغر فى المقدمة يتابع سقوط
الشبكة. سقط وانزلق ذراعه بين الحبال والعمود الخشبى.
جاهد كثيراً مستخدماً ذراعه الأخرى لرفع الحبل لكن الشبكة
فى البحر تجذب الحبل بعنف.

صرخ الرجل من الألم يطلب الغوث و جرى الجميع نحوه.
أخوه ترك الدفة و اندفع لإنقاذ ذراع أخيه من الحبال. كانت
كارثة. صرخ أحد الرجال:

- يجب قطع الحبال.

ثم جذب سكيناً ضخماً من ملابسه قادر على إنقاذ الذراع المكبل.

لكن قطع الحبال يعنى فقدان الشبكة، يعنى فقدان الكثير
من المال، ألف وخمسمائة فرنك. المركب كله ملك للأخ الأكبر
وتحت رئاسته، فصرخ فى جزع:

- لا ... لا تقطعوا ... انتظروا. سأغير اتجاه الدفة.

قال ذلك و جرى نحو الدفة .

لكن المركب لا يستجيب . التفت الحبال حول الدفة و شلت حركتها ، بالإضافة إلى سرعة الريح .

سقط الأخ الأصغر على ركبتيه فى يأس وهو يضغط على أسنانه بينما عيناه مذعورتان . لم يقل شيئاً . أتى أخوه الأكبر وهو مازال يرتجف من السكين و قال :

- انتظروا . انتظروا . لا تقطعوا . يجب أن نلقى الهلب .

ألقوا الهلب وانزلت السلاسل الحديدية بعنف وهم يحاولون جذب الحبال . ونجحوا أخيراً فى تحرير الذراع المكبلة . الأخ الأصغر أصبح مستسلاً . نزعوا سترته ليروا مشهداً رهيباً ، لحم ذراعه متعجن بينما الدماء تتزف بشدة . قال الجريح وهو ينظر إلى ذراعه :

- سأموت .

انسابت الدماء فى المركب و صرخ أحد الصيادين :

- هكذا سيموت ، يجب غلق الوريد .

أخذوا الحبال الرفيعة التى معهم وربطوا العضو المصاب بقوة شديدة إلى أن توقف النزيف شيئاً فشيئاً .

هب الأخ الأصغر بينما ذراعه يتدلى بجواره. أمسكه بذراعه الأخرى، رفعه، حركه. كل شيء ممزق تماماً، لم يبق في هذا الطرف إلا العضلة فقط. تأمله بنظرة كئيبة وهو يفكر. ثم جلس بجوار الشراع بينما الأصدقاء يلتفون حوله وينصحونه بغسل ذراعه دون توقف لمنع الألم.

وضعوا الجردل بجواره. كل دقيقة يسحبون المياه بالكوب ويصبونها على الجرح إلى أن تساقطت المياه الصافية. قال له الأخ الأكبر:

- ستكون في حالة أفضل بالأسفل.

نزل إلى الطابق الأسفل لكنه صعد بعد ساعة لأنه لا يحب الشعور بالوحدة. بطبيعته يحب الهواء الطلق. جلس بجوار الشراع و استمر في غسل ذراعه.

كان الصيد وفيراً. الأسماك الكبيرة البيضاء تتلوى بجواره، يتأملها ثم يتأمل ذراعه.

في طريق العودة إلى «بولونيا» عاودت الرياح هجومها ودخل المركب في صراع مجنون وهو يرج الجريح الحزين. هبط الظلام واستمرت العاصفة حتى الفجر. مع ضوء الشمس لمحو الأرض الإنجليزية لكن لأن البحر أصبح أهدأ قليلاً رحلوا في اتجاه فرنسا.

بدا عليه الارتياح وهو يتنفس بقوة وراح يصب المياه على مكان البتر.

أصبحت العاصفة أشد في المساء ولا نستطيع الاقتراب من الأرض. عندما سطع النهار التقط الجريح ذراعه المبتور وراح يتأمله كثيراً. بدأت عملية التحلل. أتى الأصدقاء لفحص الذراع الواحد تلو الآخر ثم قال أخوه:

- يجب أن نلقيه في البحر الآن.

لكن الجريح غضب كثيراً:

- لا ... لا ... لا أرغب في ذلك أبداً. إنه ذراعى أنا ويخصنى أنا.

قال الأخ الأكبر:

- هذا سيقتلنا جميعاً.

فجأة أتت الفكرة إلى الجريح. عندما نقضى فترة طويلة في عرض البحر نحتفظ بالأسماك في الملح وطالب بحفظ الذراع المبتور بنفس الأسلوب.

قال الآخرون:

- هذا صحيح.

هكذا أفرغوا صندوقًا من الأسماك ووضعوا الذراع فى
الملح ثم أعادوا الأسماك فوقه. قال أحد البحارة مازحًا:

- سنبيعه فى المزاد.

ضحكوا جميعاً ما عدا الأخوان.

مازالت العاصفة مستمرة. الأنظار تتجه نحو «بولونيا»
حتى الساعة السادسة صباحًا. الجريح يصب الماء على جرحه
دون توقف. من حين لآخر يتجول فى المركب من أوله لآخره.
أخوه الذى يقبض على الدفة يرقبه وهو يهز رأسه فى أسى.
أخيراً وصلوا الميناء.

الطبيب فحص الجريح و مدح فعلهم ثم أمره بالراحة، لكنه لا
يستطيع النوم دون أن يأخذ ذراعه فعاد بسرعة إلى المركب بحثًا
عنه فى الملح. لفه بحرص شديد فى المنشقة وعاد إلى منزله.

الزوجة و الأولاد تفحصوا الجزء المبتور من الأب بدقة ثم
طلبوا عامل المقابر ليحدد حجمه ويعد له مقبرة خاصة.

فى اليوم التالى خرجت الصحبة كلها فى الجنازة خلف
الذراع المبتور. الأخوان يسيران بجوار بعضهما البعض فى أسى.

اعتزل الجريح الصيد وبدأ فى ممارسة أعمال صغيرة
فى الميناء. وبعد ذلك أصبح عندما يتحدث عن الحادثة يقول
بصوت منخفض: لو كان أذى وافق على قطع الشبكة لما فقدت
ذراعى. لكنه لا يفكر إلا فى مصلحته.



الوصية

أعرف هذا الشاب الضخم الذى يُدعى «رينى بورنفال». إنه تاجر محبوب. رغم حزنه يبدو كأنه قد حصل على كل شىء. يعتنق مذهب الشُكاك. شكوكه دقيقة و كلماته لاذعة. شديد الحرص والحساسية عندما يسمع كلمات الرياء الاجتماعى. يردد دائماً: لا يوجد رجال شرفاء، أو على الأقل، الجميع يمارس الفجور بدرجات مختلفة.

له أخان لا يراهما أبداً. إخوته تحت اسم «كورسيل». أعتقد أن صديقى ليس نتاج نفس الفراش، ألا تلاحظون الاختلاف فى الاسم؟...

سمعت حكايات كثيرة و غريبة عن هذه الأسرة لكن لا أحد يعلم التفاصيل.

صديقى يروق لى وأصبحنا نتسامر كثيراً ونحن ندخن السجائر. فى ذات ليلة، بينما كنت أتناول العشاء عنده و نتسامر، سألته بالمصادفة:

- هل أنت من الزواج الأول أو الثانى؟

فى هذه اللحظة شحب وجهه ثم احمر. صمت لحظات
وبدا عليه الخجل والارتباك. ثم ابتسم فى يأس وقال بهدوء:
- صديقى العزيز، إن لم يزعجك ساقص لك تفاصيل
أصلى، وهى تفاصيل خاصة جداً. أعلم أنك رجل ذكى ولذلك
أخشى من فقدان صداقتك. ولو تأثرت صداقتنا أعدك أننى
لن أفرضها عليك.

والدتى زوجة «كورسيل». كانت فتاة صغيرة وفقيرة. تزوجته
من أجل الثروة فقط. كانت كل حياتها معاناة. تتمتع بروح محبة،
وجلة، رقيقة. كان زوجها، الذى من المفترض أنه أبى، يعاملها
بغلظة وقسوة، رجل قروى فظ. بعد مرور شهر واحد من
الزواج بدأ فى معايشرة خادمة، كما كان لديه عشيقات كثيرات
من النساء والفتيات العاملات فى مزرعته. هكذا لا مانع من
أن يصبح لديه طفلان من زوجة واحدة و أحياناً ثلاثة. هل
تفهمنى؟ والدتى لا تعترض على شىء أبداً. تعيش فى هذا
المنزل فى صخب دائم مثل الفئران الصغيرة التى تختفى خلف
قطع الأثاث. مطموسة، متخفية، ترقب الناس بنظرات قلقة
وصافية، لا تحرك ساكناً، الخوف لا يتركها أبداً. كانت جميلة
بل جميلة جداً، شقراء منطوية.

من بين الأصدقاء المترددين على قصر «كورسيل» كان هناك فارس عجوز أرمل، رجل مُهاب، ناعم ودود، قادر على مواجهة كل المشاكل. إنه السيد «بورنفال» الذى أحمل اسمه. إنه رجل جرىء نحيف يتحلى بشارب أسود ضخم. يقولون أننى أشبهه كثيراً. هذا الرجل قرأ كثيراً ولا يفكر مثل بقية أفراد طبقته. كانت جدته صديقة لـ «جون جاك روسو» ويقولون أنه ورث شىء ما عن هذه العلاقة. يحفظ عن ظهر قلب «العقد الاجتماعى» و كتب أخرى كثيرة تعود إلى التاريخ القديم الذى يشكل ثقافتنا اليوم. يعلم الكثير عن القضاء و القوانين و يعلم جيداً أخلاقنا العبثية.

يبدو أن هذا الرجل أحب والدتى وهى أيضاً أحبته. استمرت العلاقة بينهما فى سرية تامة. السيدة المسكينة البسيطة أصبحت حزينة و تعلقت به فى يأس، تعلمت منه كيف تفكر و تعلمت منه نظريات الحرية، تعلمت منه التهور والاندفاع فى الحب. لكنها كانت جبانة ولم تستطع الإفصاح عن نفسها أبداً. كل هذا يقلقها و يزيد من مخاوفها.

أخوای يتعاملان معها بمنتهى القسوة والغلظة مثل والدهما، لا يتعاطفان معها أبداً. يتعاملان معها كأنها خادمة فى المنزل. أنا الابن الوحيد الذى كان يحبها و تحبنى.

ماتت عندما كانت فى الثامنة عشرة من العمر. يجب أن أضيف لك، لتعلم ما حدث بعد ذلك، أنه تم استدعاء زوجها من النائب العام لمناقشة مصدر ثروته، لذلك اضطر أن يكتب كل أملاكه باسم زوجته. وعلمنا بعد وفاتها مباشرة أن هناك وصية عند النائب العام الذى دعانا ليتها علينا.

أتذكر كل ما حدث كأنه حدث بالأمس. كان مشهداً فخمًا مأسوياً، هزلياً مذهلاً. إنها صرخة الحرية تأتي من قلب المتوفية التى تأملت كثيراً فى حياتها، صرخة يائسة عن الحرية. ما أعتقد أنه والدى هو رجل ضخم دموى يعيش بفكر الجزائر. أخواى هما شابان قويان فى العشرين والثانية والعشرين من العمر، كلنا نجلس بهدوء. السيد «بورنفال» تم استدعائه للحضور و جلس فى مكانه خلفى. كان يتدثر بمعطفه، شاحباً، يضغط على أسنانه تحت شاربه الذى أصبح رمادياً الآن. يترقب ما سيحدث.

أغلق النائب العام الباب بالمفتاح و بدأ يقرأ بعد أن فك الشمع الأحمر الذى يغلف الوصية.

فجأة صمت صديقى، هب واقفاً ثم سحب من صندوق متعلقته الشخصية ورقة قديمة وقال:

- هذه هى وصية أمى العزيزة.

(اسمى «آن كاترين» وأنا الزوجة الشرعية لـ «كورسيل».)
أكتب هذه الوصية و أنا فى كامل قواى العقلية.

فى البداية أطلب العفو من الرب و من ابنى الغالى «رينى»
بعد ذلك عن الجرم الذى ارتكبته فى حقه وأعتقد أن قلب ابنى
الكبير قادر على أن يسامحنى و يفهمنى. عانيت كثيراً طوال
حياتى. كان زواجى مثل صفقة تجارية. ثم تحول إلى صفقة
ازدراء واحتقار من ناحية زوجى.

أنا أسامحه لكن ليس له أى حق عندى.

ولداى الكبيران لا يحبانى، لا يشعران بوجودى أبداً.

حاولت خدمتهما والتعاون معهما بقدر استطاعتى طوال
حياتى. علاقة الدم بيننا لم تنقطع أبداً فى يوم من الأيام.
الابن الذى يتعامل مع والدته كأنها غريبة عنه لا يعتبر مفضلاً
بالنسبة لأمه.

أنا أرتجف دائماً أمام الرجال، أمام قانونهم الغاشم
وعاداتهم الغير إنسانية و أحكامهم الغليظة. أما أمام الرب
أنا لا أخشى شيئاً. بعد أن مت رفعت عن نفسى كل الارتياح
والتردد. أستطيع الآن التعبير عن فكرى و أكشف عما فى قلبى.

إذاً، أترك كل ثروتى، على حسب ما يسمح به القانون،
لحبيبى «بورنفال» ليرثه بعد ذلك ابنا الغالى «رينى».

سأذهب إلى القاضى العادل و أشكوله كل آلامى و همومى،
وهو يعلم جيداً أنه خلق البشر ليتحابوا فيما بينهم.

ولداى الكبيران أبوهما «كورسيل». أما «رينى» فقط هو ابن
«بورنفال». أقر بذلك إحقاقاً للحق. أنا أحبكم جميعاً وسأظل
أحبكم حتى وأنا فى قبرى. هذه هى رغبتى الأخيرة.

التوقيع « أن كاترين».

السيد «كورسيل» هب واقفًا و صرخ: يالها من امرأة
مجنونة .

السيد «بورنفال» أعلن بصوت قوى وحاسم أن كل ما قالته
حقيقى. وأنا كنت مستعداً لمساندة هذا الرجل أمام أى إنسان
مهما كان.

السيد «كورسيل» اتجه نحوى. اعتقدت أنه سيضربنى.
الرجلان المتصارعان سيتواجهان، أحدهما ضخم والآخر نحيف
مرتجف. زوج والدتى قال: أنتم بؤساء. الآخر أعلن بصوت
جاف وفظ: سنبتعد عنكم سيدى. لقد صفعتك منذ زمن طويل
لكنى احتفظت بهدوئى طوال حياة هذه السيدة المسكينة التى
عذبتها كثيراً.

ثم التفت نحوى و قال:

- أنت ابنى، ألا تتبعنى؟ ليس لدى الحق فى الاحتفاظ بك
لكنى قادر على الحصول على هذا الحق من المحكمة.

ضغطت على يديه دون أن أقول أية كلمة. بالتأكيد كنت
على وشك الجنون فى هذه اللحظة.

بعد يومين، السيد «بورنفال» قتل السيد «كورسيل» فى
المبارزة. أخوإى صمما من الخوف هددتهما وقبلأ بنصف ثروة
والدتى التى منحتها لهما.

عدت إلى اسمى الحقيقى. رفضت ما منحه لى القانون
لأنه ليس من حقى. السيد «بورنفال» مات منذ خمس سنوات
ولم أعزى فيه حتى الآن .

هب صديقى واقفاً وجلس فى مواجهتى ثم قال:

- أعلم أن وصية والدتى كانت رائعة وصادقة، هذا أكثر
كثيراً مما تتحمله امرأة ضعيفة. أليس كذلك؟

صافحته بكلتا يديّ و أنا أقول:

- بالتأكيد يا صديقى.



في الحقول

الكوخان متلاصقان تحت التل، بالقرب من قرية صغيرة. القرويان يعملان بجدية في الأرض المريضة لإعاشة أطفالهم. يوجد في كل مسكن أربعة أطفال. أمام البابين المتجاورين، كل الأطفال يلعبون من الصباح إلى المساء. الكبيران في السادسة من العمر بينما الصغيران حوالى خمسة عشر شهراً. مواعيد الزواج والإنجاب متشابهة في الكوخين.

ما أن ينتهى الوالدتان من طهو الطعام حتى يقوم الوالدان بإعداد المائدة. الأسماء الثمانية تختلط دائماً في العقول. عندما نحتاج إلى النداء على أحدهم، ينادى الرجال على ثلاثة أسماء قبل أن يصلوا إلى الاسم الصحيح.

أول الكوخين قادم من محطة المياه في «رولبورت» يشغلها «توفاش» الذى لديه ثلاثة بنات وولد واحد. المنزل الآخر تشغله أسرة «فيلان» وله فتاة واحدة وثلاثة أولاد.

كل هؤلاء يعيشون على المرققة والبطاطس في الهواء الطلق. يجتمعون في السابعة صباحاً ثم في الثانية عشرة ظهراً ثم السادسة مساءً ليقدموا العجائن للصغار. الكبار يجمعون الصغار

مثل مربى الدجاج. يجلس الأطفال فى صف حسب السن حول المنضدة العتيقة المصنوعة من خمسين عاماً. الأصغر منهم يصل فمه بالكاد إلى سطح المنضدة. يضعون أمامهم أطباقاً مليئة بالخبز المنقوع المرقعة المطهية بالبطاطس ونصف كربنة محلية بالزبد وثلاث بصلات و ينهمك الجميع فى الطعام حتى الشبع. الأم تعاون الصغير على الطعام. فى يوم الأحد يضعون القليل من اللحم على النيران. إنه يوم عيد بالنسبة للجميع والأب فى هذا اليوم يتأخر قليلاً وهو يقول: لقد عملت كثيراً طوال الأسبوع.

فى إحدى أمسيات شهر أغسطس توقفت فجأة عربة خفيفة أمام الكوخين، تقودها سيدة صغيرة بنفسها وقالت للسيد الجالس بجوارها:

- آه! انظر «هنرى» هذه المجموعة من الأطفال. أليسوا فى غاية الجمال و هم ملطخون بالتراب؟!!

الرجل الذى اعتاد على هذه الكلمات لم يرد. كلماتها مؤلمة ولأئمة. استكملت السيدة الصغيرة:

- يجب أن أحتضنهم . آه! أحلم أن يكون لدى طفل واحد مثل هذا الصغير جداً.

قفزت من العربية وجرت نحوهم تحتضن أحد الصغيرين، إنه الصغير «شارلو» الذى ينتمى إلى أسرة «توفاش». قبلته فى وجنتيه المملخة بالتراب وربتت على شعره الأشقر المتسخ وعلى يديه الصغيرتين العابتين.

ثم صعدت إلى العربية ورحلت وهى تحت الحصان على الإسراع. لكنها عادت فى الأسبوع التالى. جلست بنفسها على الأرض، أخذت «شارلو» فى أحضانها وأعطته الجاتو ومنحت البونبون لكل الآخرين. لعبت معهم كأنها سوقية مثلهم بينما زوجها ينتظر بصبر فى العربية الفاخرة.

عادت مرة أخرى و تعرفت على الأهل ثم أصبحت تأتى كل يوم و جيوبها ممتلئة بالحلويات و قطع النقود الصغيرة.

اسمها حرم «هنرى هوبيار».

فى ذات صباح هبط زوجها من العربية. لم تتوقف بين الأطفال الذين أصبحوا يعرفونها الآن، بل اتجهت هى وزوجها إلى المنزل. كان الفلاحان يعدان النيران لصنع المرققة. هبا واقفين وقدا لهما المقاعد وظلا صامتين. قالت السيدة بصوت مرتجف:

- أصقائى الأعزاء، جئت لأطلب منكم... أطلب منكم...

أطلب... ابنكم... ابنكم الصغير.

الفلاحان ذهلا، توقف عقلهما تماماً و لم يجب أى منهما .
أكملت السيدة فى تلغثم:

- ليس لدينا أطفال، نعيش فى وحدة، زوجى و أنا...
سنأخذه... هل توافقان؟

فهمت الفلاحة ما تقصده و سألت:

هل تريدان أخذ هذا الصغير «شارلو»؟ لا بالتأكيد.

تدخل زوج السيدة قائلاً:

- هناك سوء فهم سيدتى. نرغب فى أن نتبناه لكنه سيأتى
لزيارتكم. حتى لو صارت الأمور بشكل جيد كما نريد سيصبح
وريشنا. على سبيل المثال، لو أنجبنا أطفال فيما بعد سيصبح
وريثاً متساوياً لهم و لو رفض الطفل طاعتنا سنمنحه عشرين
ألف فرنك و سنقوم بتسجيل هذا المبلغ باسمه فى المحكمة.
و لأننا نفكر بكم سنظل فى خدمتكم حتى الممات بمبلغ مائة
فرنك فى الشهر. هل فهمتهم قصدى؟

هبت الفلاحة واقفة فى غضب و قالت:

- هل تريد أن أبيع لك «شارلو»؟ لا، مستحيل أن تطلب من
الأم ذلك. لا طبعاً ، هذا فحش.

لم يقل السيد شيئاً، تفكر بجدية وهو يرقب زوجته التى فقدت صوابها وراحت تبكى وهى ترنو إليه وتغمغم بصوت طفولى مضغم بالأسى:

- لا يريدون يا «هنرى» . لا يريدون.

قام السيد بالمحاولة الأخيرة وهو يقول:

- فكروا يا أصدقائى فى مستقبل الطفل، فى سعادته، فى...

قاطعته الفلاحة بغضب:

- لقد سمعت كل شىء وفهمت كل شىء وفكرت جيداً.

اذهبا بعيداً، لن أبيع ابنى بهذه الطريقة أبداً.

خرجت السيدة وهى تبكى. تذكرت أن هناك طفلاً آخر

صغيراً، سألت من بين دموعها:

- هل الطفل الآخر ابنك؟

الأب « توفاش » قال:

- لا ، إنه ابن جيراننا . من الممكن أن تذهبا إليهما إن أردتم .

قال ذلك ثم دخل بيته وأغلق الباب بينما مازالت الأم

تصيح فى غضب.

فى أسرة «فيلان» كان الزوجان حول المائدة يتناولان الخبز المطهو بالقليل من الزيد فى طبق واحد بينهما .

بدأ السيد «هنرى» فى تقديم عرضه بحرص شديد ولباقة .

القرويان هزا رأسهما بالرفض، لكن عندما علما بمبلغ مائة فرنك فى الشهر راح كل منهما يرنو إلى الآخر وهو يتفكر. التزما الصمت فترة طويلة، يتفكران، يترددان وأخيراً سألت الأم:

- ماذا يقول هذا الرجل؟

أجاب زوجها بصوت مضخم:

- هذا الرجل يحدثنا باحتقار.

السيدة «هوبيار» التى ترتجف من الألم راحت تتحدث عن مستقبل الطفل وسعادته وعن المال الذى سيحصل عليه بعد ذلك. سأل القروى:

-ألن تثبت مبلغ الألف و مائتى فرنك فى العام عند

المحامى؟

قال السيد «هوبيار»:

- بالتأكيد، من الغد.

الفلاحة التى تفكر بجديّة قالت :

- مائة فرنك ليست كافية من أجل هذا الصغير. إنه سيعمل بعد بضعة سنوات و يأتى لنا بالمال. يجب أن يكون الراتب مائة وعشرين فرنكاً.

السيدة «هوبيار» ارتجفت فى صبر نافذ لكنها وافقت على الفور ولأنها تتعجل الأمر منحها مائة فرنك على سبيل الهدية بينما بدأ الزوج فى كتابة العقد. ولأن المحافظ جارهما أتى بسرعة وأحضرا الشهود.

الزوجة الثرية حملت الطفل مبتهجة كما لو كان دمية اشتريتها من المتجر.

وقفت أسرة «توفاش» على الباب تتأمل الأثرياء وهم يرحلون. ربما نادمان على الرفض.

لم يعد أحد يذكر اسم «جون فيلان». والداه يذهبان إلى المحامى كل شهر للحصول على المائة وعشرين فرنك. دب الشجار بين الكوخين المتجاورين لأن أسرة «توفاش» تتهم «فيلان» بالتذارة والحقارة. من حين لآخر تلتقط أم «شارلو» ابنها فى حضنها وهى تقول:

- لم أبعك، لم أبعك يا صغيرى. لا أبيع أولادى. لست
ثرية لكننى لا أبيع أولادى.

مرت أعوام وأعوام والأزمة تشتد بين الكوخين. الأم
«توفاش» تشعر بالفخر لأنها أرقى و أعظم من جيرانها لأنها
رفضت بيع «شارلو». كل من تتحدث معهم يحمدون فعلها
ويمدحون نبل أخلاقها.

أصبح «شارلو» فى الثامنة عشرة من العمر وهو يشعر
بالفخر والتعالى بين أصدقائه لأن أهله لم تبعه.

أسرة «فيلان» تعيش فى بجموحة بينما أسرة «توفاش»
بقيت تعاني البؤس. ابنهما الأكبر رحل للخدمة العسكرية،
ابنهما الثانى توفى وأصبح «شارلو» وحيداً مع والديه العجوزان
لإطعام والدته و أخته الصغيرتين.

أصبح فى العشرين من العمر. وفى ذات صباح توقفت عربة
تتألاً بين الكوخين وهبط منها شاب صغير يتفاخر بساعته
الذهبية وهو يتأبط ذراع سيدة عجوز بيضاء الشعر. قالت له
السيدة:

- هنا يا بنى. هنا بيتك الثانى.

دخل الشاب إلى بيته فى أسرة «فيلان». كانت أمه العجوز تغسل ثوبها بينما الوالد ينعس فى الفراش. رفع العجوزان رأسيهما وقال الشاب الصغير:

- صباح الخير يا أبى. صباح الخير يا أمى.

وقفا مذعورين. سقطت قطعة الصابون من الفلاحة فى المياه و غمغمت:

- هل أنت ابنى؟ هل أنت ابنى؟

احتضنها الشاب وهو يكرر: صباح الخير يا أمى.

بينما ارتجف الأب وهو يقول بصوته الهادئ دائماً كأنما قد مر عليه شهر واحد فقط دون رؤية ابنه:

- ها أنت قد عدت يا «جون».

بعد أن تم التعارف بينهم أراد الوالدان الخروج بصحبة ابنهما ليقدماه إلى أهل البلدة بفخر. ذهبوا إلى الخورى ومسؤول البلدية وكل الجيران.

وقف «شارلو» أمام كوخه يرقب ما يحدث. وعندما هبط المساء، وهو يتناول العشاء مع أهله قال:

- هل تعلمون أنكم كنتم أغبياء لأنكم سمحتم للسيدة بأخذ

«فيلان» الصغير؟

قالت الأم فى استياء:

- أنا لا أبيع أولادى أبداً.

لم يقل الأب شيئاً. قال «شارلو»:-

- أليست حياتنا بأئسة؟

اندفع الأب فى غضب:

- هل تلومنا لأننا حافظنا عليك.

قال الابن:

- نعم ألوكمم لأنكم أغبياء. أمثالكم يدفعون أولادهم للحياة

فى بؤس. ما الذى سآرثه منكم.

بكت الأم الطيبة وسقطت دموعها فى الطبق ثم قالت:

- أنتحر إذاً لتربية الأطفال؟

قال الابن الثائر:

- أفضل الموت على هذا البؤس. عندما رأيت الآخر علمت

قدر نفسى وقدر معاناتى.

ثم هب واقفًا وقال:

- أعتقد من الأفضل ألا أبقى هنا لأننى سأظل أومكم طوال الليل والنهار على هذا البؤس. لن أسامحكما أبدًا.

صمت العجوز وعاد الابن يقول:

- حياتنا قاسية جدًا. سأرحل بحثًا عن نصيبى.

كانت أسرة «فيلان» تحتفل بابنها بينما خرج «شارلو» واختفى فى عتمة الليل.



العصافير المفردة

حتى الآن حرم «أفانسال» تصد كل المحاولات اليائسة من البارون «جوزيف دى كرواسار» المُعجب بها. والآن يقيم لها الاحتفالات ورحلات الصيد فى قصره النورماندى.

الزوج «أفانسال» لا يرى شيئاً ولا يعرف شيئاً كالعادة. يعيش معزولاً عن زوجته بسبب ضعفه الجسمانى، وزوجته لا تسامحة أبداً. الزوج قصير، أصلع، قصير الذراعين والرقبة والأنف وكل شىء.

زوجه علي النقيض، سيدة ضخمة شقراء، تستمع بقوة الشخصية والإدارة، ضحكاتها صاحبة فى وجه عاشقها الذى يطلق عليها على سبيل المداعبة «حرم التافة» وهو يدنو إليها فى حب وإعجاب. يبدو عاطفياً بأكتافه العريضة ورقبته الضخمة وشاربه الأشقر الكثيف. هذا هو البارون «جوزيف دى كرواسار».

مع ذلك، هى لم تتفق معه على شىء حتى الآن. البارون ينهار أمامها. يقيم الاحتفالات ورحلات الصيد دائماً، يقيم الولائم و يدعو النبلاء من القصور المجاورة.

كل يوم تتبح الكلاب وهى تجري فى الغابة لمتابعة الثعالب والخنازير البرية. أثناء الليل، كل ليلة تتلألاً الألعاب النارية المبهرة فى السماء لتداعب النجوم، بينما نوافذ الصالون تلقى بالضوء على الأرض الخضراء حيث تتراقص الظلال.

إنه الخريف، موسم رجال الشرطة. الأوراق ترتجف على أشجار الكازورينا مثل الطيور ونشتم فى الهواء رائحة الأرض الرطبة، الأرض العارية، كما نشتم رائحة اللحم العارى حينما يتساقط الجميع بعد الحفل الراقص.

فى ذات ليلة، فى الحفل، أثناء الخريف الأخير، قالت حرم «أفانسال» للسيد «كرواسار» الذى يداهما بتوسلاته: إذا كان يجب أن أسقط صديقى، لن أسقط قبل سقوط الأوراق. فقال لها: لدى أعمال كثيرة يجب القيام بها فى هذا الصيف. أصبح يردد هذه الجملة المازحة كل يوم وهو يحاول التقرب منها. كسب خطوة فى قلب المعشوقة الجميلة التى تبدو أنها لا تقاوم إلا من أجل المظهر الاجتماعى.

فى إحدى رحلات الصيد الكبيرة قالت له وهى تضحك: لو نجحت فى الصيد سيكون لك مفاجأة عندى.

هب واقفًا من الفجر. اصطحب مدربي كلاب الصيد كما أعد كلابًا أخرى علي سبيل الاحتياط. بدأ فى مراجعة كل شىء بنفسه لتحقيق النصر. عندما دقت أجراس البداية ظهر فى ملابس الصيد الضيقة الحمراء المزينة بالذهب. بدا صارمًا حازمًا، متوهج العينين، طازجًا قويًا كما لو أنه مستيقظ للتو من فراشه.

رحل الصيادون بصحبة الكلاب النابحة عبر الأدغال وبدأت الخيول تتحرك بخفة فى الأماكن الضيقة فى الغابات المتوحشة، يتبعهم العربات المصاحبة لهم من بعيد.

نجحت حرم «أفانسال» بمكرها فى الوصول إلى القرب من البارون عندما وصلوا إلى طريق طويل مستقيم تحفه أشجار السنديان من الجانبين. ارتجف البارون من الحب والقلق، يلقي بأذنه إلى ثرثرة السيدة الجميلة والأذن الأخرى إلى نباح الكلاب التى تتبعد. قالت:

- أنت إذا لا تحبنى أبداً؟

أجاب :

- لماذا تقولين ذلك؟

أجابت:

- لأنه من الواضح أنك مشغول بالصيد أكثر منى.

ارتجف وهو يقول:

- ألم تأمرينى بالخروج إلى الصيد بنفسى؟

أكملت السيدة بجديّة:

- لم أكن اتوقع ذلك. يجب أن تصطاد الحيوان أمام عينيى.

انتشى الرجل. ضغط بساقيه وقفز الحصان. فقد البارون

صوابه وقال هائماً:

- اللعنة، هذا لن يحدث طالما بقينا هنا.

ثم راحت تتحدث معه برفق وهى تضع يدها على ذراعة أو

تجامله كأنها تسرى عنه ثم قالت وهى تضحك:

- يجب أن تتم عملية الصيد الليلة و إلا ستخسر كثيراً.

اتجها إلى اليسار فى طريق مظلل بالأشجار، وفجأة، لكى

تتفادى فرع شجرة مالت نحوه حتى تلامس شعرها مع رقبتة.

ارتجف و قبلها فى اشتها.

لم تحرك ساكناً، ظلت ثابتة حتى التقت الشفاة، ثم بسبب

الارتباك أو الندم، ضغطت على حصانها ليجرى. ذهباً بعيداً

دون أن يتبادلا النظرات.

بدأ الاقتراب من معمعة الصيد. بدأت الكلاب تجرى عبر فروع الأشجار وظهر قطيع من الخنزير البرى. صرخ البارون فى نشوة الظفر:

- من يحبنى يتبعنى.

ثم اختفى فى الغابة كما لو كانت ابتلغته. لحقت بهم بعد بضع دقائق فى مكان مكشوف فى وسط الغابة. كان يقف ملطخاً بالوحل، سترته ممزقة والدماء تنزف من يديه بينما الحيوان ممدداً وسكين الصيد مغروساً فى أكتافه.

تمت المعالجة بجوار المشاعل أثناء ليلة هادئة حزينة. ضوء القمر يحول النيران الحمراء إلى صفراء ونسمات الهواء تتشر رائحة الدخان فى المكان. الكلاب أكلت أحشاء الخنزير البرى، تتبح وتتصارع فيما بينها. مدربو الكلاب والصيادون يجتمعون حول الجريح الذى يتأوه ويتألم. انتشر الضجيج فى الليلة الصافية فى الغابة و ذهب صدى الصوت يتردد فى الأماكن البعيدة ليقلق الأيائل، بينما الذئب تتابع الأرانب الرمادية حول المكان.

الطيور الليلية تحلق فوقهم وهى تصيح فى وحشية بينما النساء تأثرن كثيراً بهذا الجو المهيّب وهن ينحنين على ذراع الجريح، والأخريات ذهبن لمتابعة الكلاب إلى أن تنهى وجبتها.

الكل مُجهد من عناء هذا اليوم الشاق. حرم «أفانسال» قالت للبارون:

- صديقى، ألا ترغب فى التجول قليلاً؟

دون أن يجيب هب واقفاً وهو يرتجف لمتابعتها. وفجأة احتضن كل منهما الآخر؟ ذهباً يتجولان بخطوات بطيئة تحت غصون الأشجار الجافة بينما ضوء القمر ينساب بينهما برفق. التهبت مشاعرهما وفاضت رغبتهما حتى سقطا تحت إحدى الشجرات.

اختفى الألم، الكلاب المتخمة نامت على الطريق. قالت السيدة الجميلة: لنعود.

عندما وصلا إلى القصر غمغمت بصوت مرهق:

- أنا مرهقة جداً، سأذهب للنوم صديقى.

فتح لها ذراعيه ليحصل على القبلة الأخيرة لكنها فرت هاربة و هى تقول كأنها تودعه:

- لا، أريد أن أنام... من يحبنى يتبعنى..

بعد ساعة أصبح القصر غارقاً فى الصمت تماماً. خرج البارون من حجرته على أطراف أصابعه وطرق باب صديقه، ولأنها لم تجب فتح الباب برفق شديد.

كانت تجلس حاملة بجوار النافذة. ركع أمامها وراح يقبلها من خلال ثياب النوم. لم تقل شيئاً لكنها غرست أناملها فى شعره. فجأة فرت من بين يديه كأنما تذكرت شيئاً مهماً، غمغمت بصوت جاف لكن منخفض: ساعود، انتظرنى. وأشارت بإصبعها إلى الفراش.

فقد صوابه، ارتجف وهو يخلع ثيابه وغاص فى الفراش مستمتعاً بالغطاء الناعم. لم تعد إليه. بالتأكيد تداعبه. أغمض عينيه وهو يحلم باللقاء الحار. لكن رويداً رويداً بدأت عضلات جسده ترتخى و عقله يتوقف و دفعه الإرهاق إلى النوم.

غط فى نوم عميق مثل كل الصيادين العائدين من الرحلة. نام حتى الفجر. فجأة سمع من النافذة النصف مفتوحة تغريد العصافير على الشجرة القريبة. فتح عينيه مذهولاً. شعر بجسد بجواره، كانت هى، التفت إليها بذهول و قال:

- ماذا؟ أين أنا؟ ماذا حدث؟

كانت مرهقة جداً لأنها لم تتم لحظة واحدة طوال الليل. نظرت إليه بغضب وقالت بنبرة جافة تشبه النبرة التى تتحدث بها مع زوجها:

- لم يحدث شيء. العصافير تغرد. نم سيدى.



الابن

راح الصديقان يتجولان فى الحديقة المزهرة حيث تنتشر بهجة الربيع. أحدهما سيناتور والآخر عضو فى الأكاديمية الفرنسية. الاثنان جادان حازمان، يفكران بالمنطق، لكن يميلان إلى الاستعراض، إنهما من الطبقة الراقية ويتمتعان بشهرة كبيرة.

فى البداية تحدثا فى السياسية، تبادلوا الآراء، ليس حول الأفكار بل حول الأشخاص. فى هذه المهنة الشخصيات العامة تفكر بالمنطق. ثم راحا يستعيدان بعض الذكريات. ثم صمتا واستكملا التجوال أحدهما بجوار الآخر منتشياً بالهواء الرطب.

كان هناك زهرية ضخمة جميلة بها مجموعة كبيرة من الأزهار ترسل بالرائحة الجميلة فى النسمات بينما الحشرات تنثر حبوب اللقاح من الزهور فى شكل أتربة خفيفة لها رائحة مميزة.

توقف السيناتور يرقب السحب السابحة فى الفضاء ثم التفت إلى الأشجار الجميلة التى تتعم بأشعة الشمس وترسل حبوب اللقاح و قال:

- عندما نفكر أن هذه الذرات الغير محسوسة توجد الحياة فى مئات الأماكن البعيدة عن هنا نتعجب من هذا الأسلوب فى

التكاثر. الأشجار تتكاثر مثلنا و العجوز منها يموت بعد أن يخلق أجيال جديدة مثلنا .

- ثم توقف أمام شجرة الأبنوس التى ترسل بالرائحة الذكية وأضاف:

- آه! عزيزى يجب علينا الاهتمام بأطفالنا وهذا أمر مقلق ومحير، لكن الأشجار لا تقلق أبداً على أطفالها .

قال الأكاديمى:

- ونحن أيضاً نفعل مثل الأشجار صديقى .

قال السيناتور:

- نعم، لا أنكر ذلك، نهمل أطفالنا أحياناً، لكن على الأقل نعرفهم و هذا الشعور يتغلب علينا .

قال الأكاديمى:

لا، ليس هذا ما أقصده عزيزى. لا يوجد رجل فى الدنيا إلا يكون لديه أطفال مجهولون، نقول عنهم مجهولو النسب. هؤلاء يفعلون مثل الأشجار، يتكاثرون بدون وعى .

لو كنا نعيش مع كل النساء الذين نعرفهم لأصبحنا عاجزين عن حصر عدد أطفالنا مثل هذه الشجرة. من عمر الثامنة

عشرة إلى الأربعين، لو أحصينا عدد النساء الذين نعرفهم قد نصل إلى مائتين أو ثلاثمائة. حسناً صديقى، من بين هذا العدد ألم تخلص واحدة على الأقل؟ ألم تلتقى يوماً وأنت تجلس مستمتعاً فى الحديقة بالأطفال الأوغاد الذين ينتمون إلى رجال شرفاء؟ كما أن هناك فتيات فى الأماكن الحقيبة، وسعيدة الحظ منهن من تعيش بجوار والدتها وفى النهاية تعمل خادمة عند الأسر الكبيرة. يجب أن نعلن أن كل العاهرات لديهن طفل أو طفلان مجهولو الأب. هؤلاء الأطفال أتوا بعد صفقة بعشرة أو عشرين فرنك. فى كل المهن نعمل حساب المكاسب والخسائر. هؤلاء الأطفال هم خسائر هذه المهنة. من هم السادة؟ أنت وأنا، ونقول نحن الرجال كما ينبغى أن يكون الرجال. هذه هى نتيجة سهرة عشاء مازحة ممتعة فنندفع فى المغامرات المثيرة. اللصوص، المتسكعون، كل البؤساء، إنهم أطفالنا. ونحن نستفيد منهم أيضاً لأنهم يلدون لنا جيلاً جديداً نستمتع به. اسمع، من ناحيتى، بهذه المناسبة أعلم حكاية غريبة سأقصها لك. هذه الحكاية تؤلنى كثيراً، إنها شكوك مستمرة و مقلقة تثير فزعى. عندما كنت فى الخامسة والعشرين من العمر، دعانى أحد أصدقائى، وهو الآن سفيراً، إلى رحلة إلى بريطانيا سيراً على الأقدام.

بعد خمسة عشر أو عشرين يوماً من السير، وبعد زيارة الساحل الشمالى و جزء من «فينيستار» وصلنا إلى «دوارناز» ومن هناك إلى المضيق عن طريق «تريباس». بتنا فى قرية صغيرة ينتهى اسمها بحرفى «أوف». عندما سطع الصباح كان صديقى يعانى من إرهاق شديد فى فراشه. أقول فى الفراش بحكم العادة لأن فراشنا لم يكن إلا كومة قش.

من المستحيل أن تكون مريضاً فى هذا المكان. دفعته إلى القيام و وصلنا إلى «أوديارن» فى الساعة الرابعة أو الخامسة مساءً.

فى اليوم التالى تحسنت حالته ورحلنا، لكن كان يجب أن نكون فى منتهى الحذر فى الطريق. وصلنا إلى «جسر لابي». هناك يوجد، على الأقل، فندق صغير. اتجه صديقى إلى الفراش وقال الطبيب الذى أتى من «كمبر» إنه يعانى من حمى شديدة دون أن يحدد طبيعتها.

تعرفون «جسر لابي»؟ لا. حسناً. إنها من أكثر مدن بريطانيا تحفظاً، مفتوحة على مضيق «مورييهان». فى هذا المكان نشتم رائحة الأخلاق العتيقة، الأساطير والعادات البريطانية. حتى اليوم لم تتغير هذه المنطقة. أقول لك حتى الآن لأننى أذهب إلى هناك كل عام.

يوجد هناك قصر عتيق محاط بالأبراج فى حالة كئيبة، لا يوجد بداخله إلا الطيور المتوحشة. يوجد هناك نهر صغير تمر به بعض السفن. الشوارع ضيقة، البيوت عتيقة. الرجال يضعون القبعات والسترة وأربع قطع أخرى من الملابس. الأولى فى حجم قبضة اليد لستر الأكتاف و الأخيرة تقف فوق المؤخرة.

هناك الفتيات جميلات طازجات، صدورهن مدبية خلف السترة التى تشبه الدرع، ثيابهن لا تسمح برؤية الرقبة من شدة الاحتشام. يرتدين الملابس بطريقة غريبة، على الصدغ يضعن لوحين ملونين تحيط بالوجه، شعورهن مغطاة بطرحة تتسدل خلف ظهورهن وفوق ذلك طرحة أخرى مطرزة غالباً بالذهب أو الفضة.

الخدمة فى فندقنا عمرها ثمانية عشر عاماً على أفضل تقدير، زرقاء العينين، أسنانها قصيرة مضمومة تظهر دائماً عندما تضحك، أسنانها صلبة قادرة على طحن الجرانيت. لا تعرف أية لغة أخرى غير الإنجليزية وهذا حال معظم السكان فى هذا المكان.

حالة صديقى الصحية لم تتحسن، لذلك منعه الطبيب من السفر و أكد أنه يحتاج إلى راحة تامة. بقيت بجواره لعدة أيام. الخدمة الصغيرة تأتى دائماً لتقديم العشاء أو المنقوع الخاص لمعالجة صديقى.

داعبتها قليلاً ويبدو أنها سعدت بذلك، لكننا لم نتفق على
أى شيء لعدم وجود لغة مشتركة.

فى ذات ليلة، لأننى تأخرت كثيراً بجوار المريض، التقيت
الفتاة فى الممر وهى عائدة إلى حجرتها. حدث ذلك أمام باب
حجرتى مباشرة. هكذا بدون أى تفكير فيما أفعله، أو ربما على
سبيل المزاح، أمسكت بها من وسطها. قبل أن تستعيد عقلها
من الصدمة دفعتها إلى حجرتى وأغلقت الباب. نظرت إلى
مذعورة مرتجفة، لم تجرؤ على الصراخ خوفاً من العار، أو ربما
خوفاً من سيدها أو والدها.

فعلت ذلك وأنا أضحك لكن عندما أصبحت فى حجرتى
شعرت بالرغبة فى امتلاكها. حدث ذلك ببطء شديد ولفترة
طويلة، تصارعنا جسد أمام جسد، تشابكنا بالأذرع والأنفاس
اللاهثة و الجسد المبتل بالعرق. أه! كانت ترفرف بكل جسدها
وأنا أحاول احتضانها، ثم نفرق فى الصمت بضع لحظات خوفاً
من أن يستيقظ أحد، ثم نعود إلى المناوشات مرات كثيرة لكنها
ترفض الاندماج الكامل. بعد أن أرهقت سقطت، وما أن عاوتها
على النهوض حتى جرت نحو الباب و هربت.

لم ألتقيها فى الأيام التالية إلا مرات قليلة. لم تسمح لى بالاقتراب منها. ثم شفى صدىقى و أصبح علينا الرحيل. قبل السفر بليلة واحدة رأيتها فى منتصف الليل وهى تدخل حجرتى حافية مرتدية ملابس النوم.

ألقت بنفسها فى أحضانى وراحت تقبلنى بعنف وهى تبكى حتى الصباح. منحتنى كل ما تستطيع امرأة أن تمنحه لرجل لا تعرف لغته.

بعد ثمانية أيام نسيت هذه المغامرة. من المعلوم أن معظم الخادومات فى الفنادق يفعلن ذلك مع المسافرين. أصبحت فى الثلاثين من العمر و لم أفكر فى هذا الموضوع أبداً.

فى عام ١٨٧٦، عدت بالمصادفة فى جولة سياحية إلى بريطانيا و ذلك بعد أن قرأت عدة كتب عنها و رغبت فى اكتشاف أعماق الريف.

يبدو أنه لم يتغير شىء. القصر العتيق مازال كما هو بجدرانه الرمادية. فى مدخل المدينة مازال الفندق الصغير لكن تم تجديده إلى الأسلوب الحديث. فى مدخل الفندق استقبلتنى فتاتان فى الثامنة عشرة من العمر، ناضجتان جميلتان فى زى الخادومات و فى آذانهما الأقراط الفضية.

فى السادسة مساءً كنت على المائدة لتناول العشاء، ولأن صاحب الفندق نفسه هو الذى يخدمنى قلت له:

- هل تعلم الملاك السابقين لهذا الفندق؟ لقد قضيت هنا عشرة أيام منذ ثلاثين عاماً. أحدثك عن أحداث قديمة.

أجاب:

- إنهم أهلى سيدى.

بدأت التودد إليه فى الحديث كما لو كان صديقاً قديماً فقال:

- أتذكر ذلك جيداً. فى هذا الوقت كنت فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر. كانت حجرتك هنا و حجرة صديقك أصبحت حجرتى الآن.

هكذا استعدت كل الذكريات مع الخادمة الصغيرة. سألته:

- هل تذكر الخادمة الصغيرة التى كانت تعمل عند والدك؟ إن كانت ذاكرتى سليمة، كانت زرقاء العينين و أسنانها قوية.

اجاب صاحب الفندق:

- نعم سيدى. لقد ماتت فى فراشها بعد ذلك.

ثم أشار إلى رجل نحيف أعرج فى الحديقة بجوار السباخ وقال:

- هذا هو ابنها.

قلت و أنا أضحك:

- ليس وسيماً و لا يشبه أمه. يشبه أباه بلا شك.

قال صاحب الفندق:

- بالتأكيد، لكن لا نعلم أباه. ماتت قبل أن تفصح عنه ولا

أحد هنا يعرف أصله. دُهلنا جميعاً عندما علمنا بحملها. لم يصدق أحد ذلك.

شعرت برجفة خفيفة، نغزة مؤلمة فى القلب، حزن ثقيل.

التفت أرقب الرجل الذى يعمل فى الحديقة. إنه يضع الآن المياه أمام الأحصنة، يحمل جرادل المياه وهو يعرج بساقه. معاناته فى ساقيه واضحة، إنها أقصر من الطبيعى. يبدو تافهاً حقيراً قذراً بشعره الأصفر الطويل الذى ينساب على وجنتيه.

صاحب الفندق أضاف:

- الموضوع ليس خطيراً سيدي. نحفظ به هنا على سبيل

الشفقة. أليس هذا أفضل من الضياع فى الشوارع؟ ليس له

أب و لا أم و لا مال. والداى احتفظا بهذا الطفل مشفقين عليه

لكنه ليس ابنهما هل تفهمنى؟

لم افهم شيئاً .

ذهبت للنوم فى حجرتى القديمة و أنا أفكر فى هذا السؤال المزعج: ماذا لو كان ابنى؟ هل قتلت هذه الفتاة وأنجبت هذا الولد؟ ممكن، وماذا بعد؟ سأتحدث مع هذا الرجل وأعرف تاريخ الميلاد. لو كان الفارق شهرين فقط ستذهب كل شكوكى.

ذهبت للحديث معه فى اليوم التالى لكنه لا يتحدث الفرنسية، ويبدو أنه لا يفهم أى شىء، يجهل سنه، علمت ذلك من الخادمة التى طلبت منها أن تترجم له. يبدو أمامى أبله، يضحك بغباء لكن ضحكته تشبه ضحكة والدته.

صاحب الفندق بدأ يستعلم عن مولد هذا البائس. لقد وُلد بعد ثمانية أشهر وستة وعشرين يوماً من رحيلى، لأننى أتذكر جيداً أننى وصلت هنا يوم ١٥ أغسطس. مكتوب فى الأوراق مجهول الأب و الأم تُدعى: «جان كيراديك».

بدأ قلبى يخفق بشدة. لا أستطيع الحديث من شدة الصدمة. أرقب هذا الأحمق بشعره الأصفر الخشن مثل فراء البهائم. الأحمق يندهش من نظراتى له. توقف عن الضحك وهو يبحث عن مكان يذهب إليه.

أمضيت النهار كله أتجول على النهر وأفكر فى الأمر بألم شديد. لكن فى ماذا أفكر؟ لا يوجد شىء محدد. أمضيت

ساعات وساعات أقارن بين كل الاحتمالات حتى ثارت أعصابى.
كل الاحتمالات تؤكد إنه ابنى.

لم أستطع تناول العشاء و اتجهت إلي حجرتى مباشرة. لم
أستطع النوم، عندما داهمنى النوم طاردتى الكوابيس. رأيت هذا
الأحمق وهو يضحك فى وجهى و يقول: أبى. ثم تحول إلى كلب
وراح يعض ساقى. حاولت إنقاذ نفسى منه لكنه يتبعنى دائماً.
وبدلاً من النباح يحدثنى، ثم رأيتة وسط زملائى فى الأكاديمية
وهو يؤكد لهم إنه ابنى. قال أحد الزملاء: هذا واضح جداً من
التشابه بينكما. بالفعل رأيت هذا الوجه يشبهنى. استيقظت وقررت
رؤية هذا الرجل للتأكد من الشبه بيننا.

فعلت كالمعتاد وذهبت إلى الكنيسة (كنا فى يوم الأحد). منحته
بضعة مليمات وأنا أتأمله، ضحك بطريقة غبية، أخذ المال ورحل
وهو يقول كلمات غريبة لا أفهمها. بدت أنها كلمات شكر.

مر اليوم وأنا مازلت فى نفس الحيرة. عندما اقترب المساء
طلبت صاحب الفندق وأخبرته بكل حذر وأناقة أننى أهتم بهذا
الكائن المسكين الذى لا يملك شيئاً وأرغب فى عمل شىء من أجله.

قال الرجل:

- لا تفكر فى ذلك سيدى، إنه لا يريد شيئاً. أنا أستخدمه
للعمل فى حظيرة الخيول، هذا كل ما يستطيع فعله. فى مقابل

ذلك أطعمه و أوفر له المبيت مع الأحصنة ولا يريد أكثر من ذلك. لو كان لديك ملابس قديمة اتركها له لكنها ستمزق تماماً خلال ثمانية أيام.

فى المساء، كاد هذا الغبى أن يشعل النيران فى المنزل بعد أن شرب كثيراً. لقد ترك الأحصنة تمرح بالقرب من النيران ونام تحت المطر.

فى الصباح رأيت صاحب الفندق يرجونى ألا أترك شيئاً. إنه مجنون. يندفع فى الشراب إذا امتلك مليمين فقط. ثم أضاف: المال سيقته. ما أن يحصل على المليمات من المسافرين حتى يذهب إلى الحانة مباشرة.

أمضيت ساعات فى الشرفة وأنا ممسك كتاب كأننى أقرأه لكنى فى الحقيقة لم أكن أفعل شيئاً سوى مراقبة هذا الوغد، ابنى! ابنى! أحاول أن أرى إذا كان به شىء ما منى. بعد جهد كبير لاحظت خطوط فى وجهه وأنفه تشبهنى.

لم يكن من الممكن الاستمرار فى الإقامة كثيراً. رحلت ممزق القلب بعد أن تركت لصاحب الفندق بعض المال لرعاية هذا الكائن الغريب.

أعيش فى هذه الشكوك منذ ست سنوات. كل سنة تدفعنى قوة غريبة للذهاب إلى هذا المكان لرؤية هذا الوغد بجوار السباخ. أعتقد أنه يشبهنى وفى كل عام تزيد معاناتى أكثر.

حاولت تربيته وتأهيله . حاولت أن أعيده إلى الحياة الأدمية لكنه يسرف فى الشراب مجرد الحصول على بضعة مليمات وإن لم يجد المال يبيع ثيابه من أجل الشراب .

منحت صاحب الفندق بسخاء للإنفاق عليه لكنه قال لى فى النهاية:

- كل ماتفعله سيضيع هباء . يجب معاملته مثل سجين . حتى لو كان إنساناً فهو ابن زنى . إذا كنت ترغب فى فعل الخير اختر أحد أولاد الشوارع و تبناه .

ماذا اقول له؟

أحياناً أشعر برغبة جارفة لتقبيله رغم أننى لم ألمسه أبداً حتى الآن .

صمت الأكاديمى بينما غمغم صديقه السياسى:

- بالفعل يجب الاهتمام قليلاً بالأطفال مجهولى النسب .

أضاف السيناتور:

- شىء جميل أن يكون لديك خمسة و عشرون عاماً وتتجب طفلاً مثل هذا .



القديس «أنطوان»

يدعونه القديس «أنطوان» لأن اسمه «أنطوان» ، وربما لأنه رجل طيب، ودود، مرح، لطيف، قوى، شره، يشرب كثيراً، كما أنه يعشق الخادמות رغم بلوغه ستين عاماً.

كان فلاحاً مشهوراً فى منطقة «كو»، يتمتع بصدر عريض وبطن منتفخ وساقين نحفيتين حتى تتدهش من قدرتهما على حمل هذا الجسد الضخم.

أرمل، يعيش بمفرده مع خادمته واثنين من المديرين يعملان فى مزرعته، مخلصان فى إدارة أملاكه وتربية البهائم وحصاد الأرض. ابناه وبناته الثلاثة متزوجون من أجل المنفعة، يعيشون فى الضواحي. يأتون مرة واحدة كل شهر لتناول العشاء مع الأب. مشهور بالبأس و الصلابة فى كل المدن القريبة حتى أصبح مريضاً للأمثال فيقولون هذا الرجل قوى مثل القديس «أنطوان».

عندما حدث الغزو البروسى كان القديس «أنطوان» فى الملهى الليلى يتوعد بالتهام الجيش الغازى. لأنه نورماندى أصيل فهو يتمتع بالقليل من الندالة والجبن. ضرب المنضدة الخشبية بيده فارتجفت ورقصت الأكواب والأطباق. صرخ

بينما وجهه يحتقن بالدم و عيناه الماكرة تتم عن الغضب والقوة: يجب أن ألتهم هؤلاء الأوغاد . كان يعلم أن البروسيين لن يصلوا إلى «تاتفيل» لكن عندما علم بوصولهم إلى «روتو» لم يخرج من بيته وراح يرقب الطريق من النافذة الصغيرة فى المطبخ بحذر شديد خوفاً من الحربة.

فى ذات صباح، وهو يتناول الإفطار مع مستخدميه فُتح الباب وظهر القائد «شيكو» متبوعاً بجندى ذا قبعة سوداء من النحاس. هب القديس «أنطوان» واقفاً بينما الجميع يرقبه، ينتظرون منه مهاجمة البروسيين. لكنه صافح القائد الذى يقول له: هذا الجندى سيقيم معك يا قديس «أنطوان»، لقد أتى الجنود الليلة ولا داعى للحماقات. إنهم قادرون على قتل الجميع واحراق كل البلدة لأتفه الأسباب، أنا أحذرك. قدم له الطعام. يبدو أنه شرهاً. سأذهب إلى الآخرين. على كل بيت أن يستضيف أحد الجنود.

قال القائد ذلك و خرج.

أصبح الأب «أنطوان» شاحباً وهو يرقب الجندى البروسى. الجندى ضخم طافحاً بالصحة والنضارة، عيناه زرقاوان، أشقر، لحيته الطويلة تسقط على صدره. يبدو أحمقاً إنطوائياً كأنه طفل وديع. النورماندى الخبيث سمح له بالدخول مباشرة

وأشار له بالجلوس ثم سأله: هل تريد الإفطار؟ الغريب لم يفهم. استجمع «أنطوان» شجاعته و وضع أمامه طبقاً ممتلئاً بالطعام وهو يقول: كل هذا أيها الخنزير الكبير.

راح الجندي يلتهم الطعام بشراهة بينما شعر الفلاح بالنصر. شعر أنه استعاد شهرته. غمز بعينه إلى مستخدميه الذين يرقبون الغريب. بالرغم من خوفهم الشديد إلا أنهم يريدون الضحك.

بعد أن ابتلع الجندي كل ما فى الطبق راح القديس «أنطوان» يقدم له طبق آخر فالتهمه بنفس السرعة لكنه تقهقر أمام الطبق الثالث بينما راح الفلاح يجبره على الأكل و هو يقول: ابتلع هذا أيضاً يجب أن تأكل دون أن تسأل خنزيرى الجميل. لم يفهم الجندي إلا أنهم يرغبون فى أن يأكل كل الطعام. ضحك وهو يشير إلى بطنه بما يعنى أنه شبع تماماً.

أصبح القديس «أنطوان» يعامله بمودة. ضرب بطنه وهو يضحك و يصيح: ماذا يوجد فى كرش خنزيرى؟ وفجأة التوى واحتقن وجهه بالدم وأصبح عاجزاً عن الكلام. الفكرة منعتة من الضحك: هكذا... هكذا. القديس «أنطوان» وخنزيره. أنت خنزيرى. انفجر المستخدمون الثلاثة فى الضحك.

كان العجوز سعيداً جداً وهو يقدم له أقوى الخمر. راحوا يشربون نخب الغريب الذى بدا سعيداً مبتهجاً والقديس «أنطوان» يصرخ فى وجهه: إنها أقوى الخمر، هل تشرب هكذا فى بيتك؟

منذ هذا اليوم أصبح الأب «أنطوان» لا يخرج من بيته بدون هذا البروسى. أصبح هذا هو كل همه، هذا هو الانتقام الانتقام من هذا الضخم الخبيث. أصبحت كل البلدة التى كانت ترتجف من الخوف تضحك عندما ترى الغازى وهو يسير خلف القديس «أنطوان». فى الحقيقة لم يحدث هذا من قبل ولو على سبيل المزاح. لا أحد يستطيع ذلك إلا القديس «أنطوان». أصبح يذهب إلى الجيران كل صباح مصطحباً هذا الألمانى و يقدمه للناس و هو يضرب على كتفه مبتهجاً: هذا هو خنزيرى، انظروا كيف سمنته. يضحك الفلاحون فيقول «أنطوان»:

- سأبيعه لك يا «سيزار» بثلاثة جنيهات ذهبية.
- ساشتره يا «أنطوان» و سأدعوك لأكل النقائى المصنوعة من دمه.
- أنا لا أريد إلا الأرجل.
- أترك لى البطن، لا يوجد فى بطنه إلا الدهون.

أصبح الجميع يتغامزون فيما بينهم وهم يضحكون بصوت منخفض خوفاً من أن يكتشف البروسى أنهم يسخرون منه. «أنطوان» فقط هو الذى يتجاسر عليه كل يوم. يضربه على فخده و هو يقول: لا يوجد إلا الدهون. ثم يضربه على مؤخرته وهو يصرخ: ما كل هذا اللحم؟ يضربه على ظهره ويقول: يصل وزنه إلى ستمائة و بدون نفايات.

أصبح يقدم الطعام إلى خنزيره فى كل مكان يذهب إليه. إنها المتعة الكبرى، التسلية المفضلة كل يوم. يقول لجيرانه: قدموا له ماشئتم، يلتهم كل شىء. أصبح الجيران والأصدقاء يقدمون له الخبز والزبد والبطاطس و بقايا الطعام البارد والسجق.

الجندى أحمق و هادئ. يأكل فى أدب سعيداً بهذا الاهتمام. مرض لأنه لا يرفض شئاً. سمن حتى ضاقت سترته وهذا يبهج القديس «أنطوان» فيكرر: أتعلم يا خنزيرى؟ يجب أن نعد لك قفصاً جديداً.

بمرور الأيام أصبحت صديقين. عندما يذهب العجوز لمتابعة أعماله فى الضواحي يذهب معه البروسى لسبب واحد هو متعة مصاحبته.

الأيام رتيبه ممله و كان الشتاء قاسياً فى كل أنحاء فرنسا
عام ١٨٧٠.

الأب «أنطوان» الذى يستعد لكل شىء قبل حدوثه و يحسن
استغلال الفرص، لاحظ أنه سيعانى عجزاً فى السباخ لأعمال
الخريف. اشترى ذلك من جاره الذى يعانى ضائقة مادية.
هكذا أصبح عليه الخروج كل يوم بعربته لنقل السباخ.

قبل الغروب يذهب كل يوم إلى «هول» على بعد نصف
فرسخ مصاحباً خنزيره. كل يوم يعتبر عيد لإطعام الحيوان.
أصبح الناس يتجمهرون حوله مثلما يفعلون فى الكنيسة يوم
الأحد من أجل الاستمتاع بإطعامه.

مع ذلك بدأ الجندى يرتاب فى الأمر. عندما يضحك
الناس كثيراً يرقبهم بنظرات قلقة و أحياناً يستشيط غضباً.
فى ذات ليلة، رفض ابتلاع قطعة إضافية وهم بالوقوف،
لكن القديس «أنطوان» منعه بيده القوية على كتفه وأجلسه على
المقعد بعنف حتى كاد المقعد أن يتحطم.

دبت عاصفة من البهجة و «أنطوان» لجم خنزيره كأنه
يعتنى به ثم أعلن: طالما أنك لا تريد الطعام يجب أن تشرب.
جرى أحدهم لشراء زجاجة الخمر.

أدار الجندى عينيه فى خبث لكنه شرب. شرب كما يريدون
بينما القديس «أنطوان» يمسك برأسه ليجبره على الشراب.

احمر وجه النورماندى مثل الطماطم، اشتعلت نظراته، يملأ
الأكواب و يصبها فى فمه وهو يقول: فى نخبك. وراح البروسى
يشرب كاس من الكونياك تلو الآخر دون أن يقول شيئاً.

كانت مواجهة، معرفة، انتقام. راحوا يتنافسون فيما بينهم
ممن سيشرب أكثر. لم تنته المنافسة إلا بعد انتهاء الزجاجاة.
لكن لم يهزم أى منهما. انصرفا بهدوء خطوة بخطوة. سنعود
إلى المنافسة غداً.

تبخرت العربية على الطريق تجرها الأحصنة، بدأ الثلج
فى السقوط، السماء بدون قمر، تتلألأ حزينة بالبرق الخاطف
المميت. البرد قرص الرجلين و ضاعف من شعورهما بالسكر.
القديس «أنطوان» ليس سعيداً لأنه لم يحصل على النصر
الذى يبيغيه. راح يخبط خنزيره بكتفه مع إرتجاجات العربية
ليسقطه بينما البروسى يقاوم وهو يتفوه ببضع كلمات ألمانية
تدفع الفلاح إلى الضحك. فى النهاية غضب البروسى و لكمه
بقبضة مفزعة جعلت العربية تتراقص.

كانت الخمر قد لعبت برأس الفلاح فراح يرج الجندى من ذراعيه وكل جسده، ثم تأمله بضع لحظات كأنه يتأمل طفلاً ثم ألقاه فى الطريق وهو يضحك مبتهجاً بفعلته.

لكن الجندى هب واقفاً بسرعة، عارى الرأس بعد أن تدرجت قبعته. أشهر سيفه متجهاً إلى الأب «أنطوان».

عندما رأى الفلاح ذلك ضربه بالكرباج الذى كان متيناً مثل أعصاب الأبقار. ثم خطف سلاحه ودفعه بعنف. شعر بالخوف وهو يرقبه بذهول. أصبح الجندى ممدداً على الأرض، ثابتاً، عيناه مغلقة بينما دمه يسيل على الجليد.

فقد صوابه بينما الخيول تجر العربة بهدوء و ثبات.

ما الذى سيحدث؟ سيقتلونه! سيحرقون أرضه ويخربون البلده! ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ كيف أخفى جثة القتيل؟ كيف أضلل البروسيين؟ سمع أصواتاً من بعيد، من الجليد الصامت. كاد أن يُجن من الذعر. أخذ القبعة الخاصة بضحيته وألقى بها فى الخرائب. رفع الجثة ووضعها فوق السباخ. لم يستعد وعيه إلا بعد أن عاد إلى منزله.

عندما وصل إلى فناء منزله لاحظ الضوء فى إحدى النوافذ. خادمته لم تتم بعد. عاد بعربته إلى حفرة السباخ.

انتوى أن يفرغ الحمولة فى الحفرة، ستسقط الجثة فى الحفرة ويهيل عليها السباح.

فعل ما كان يتخيله. أصبحت الجثة تحت السباح ثم راح يغطيها بالشوكة ثم غرسها فى الركن. نادى أحد مستخدمييه وأمره بوضع الخيول فى الحظيرة ودخل حجرته.

دخل إلى الفراش وهو يفكر فيما يجب أن يفعله لكن لم تأتته أية فكرة. نمت مخاوفه وهو ثابت فوق الفراش. هل سيقتلونه؟ تصبب منه العرق واصطكت أسنانه. هب واقفًا وأصبح عاجزًا عن العودة للفراش.

اتجه إلى المطبخ وأخذ زجاجة الخمر و صعد إلى حجرته. شرب كأسين كبيرين بالإضافة إلى ما شربه من قبل فزادت حدة السكر لكن نفسه لا تهدأ أبدًا وراح يلعن الرب.

راح يتجول في حجرته بحثًا عن أية وسيلة للخداع، عن أى تفسيرات ومبررات. من حين لآخر يضع يده على فمه ليعيد قلبه إلى مكانه. لا يجد أى مخرج من هذه الورطة.

فى منتصف الليل بدأ كلب الحراسة الشرس فى النباح وهو ينظر إلى الحفرة. ارتجف الأب «أنطوان». الكلب سيفضح الأمر بسرعة. انهار فوق المقعد بينما الكلب مازال ينبح بشدة حتى ثارت أعصابه.

دقت الساعة التي فى الطابق الأرضى تشير إلى الخامسة صباحاً. أصبح الفلاح على وشك الجنون. ذهب ليطلق سراح الكلب حتى لا يسمعه أحد. فتح الباب واندفع فى الظلام.

مازال الجليد الأبيض يتساقط و بدت بيوت الفلاحين مثل بقع سوداء بين الجليد. اتجه إلى مسكن الكلب وحرره فجرى وتوقف أمام حفرة السباح مباشرة بينما شعره يقف فى عصبية. ارتجف القديس «أنطوان» من خصلة شعره حتى إخمص قدمه. غمغم: ما الذى يحدث هناك؟ اندفع فى الظلام الغامض فرأى مشهداً غريباً. رجل يجلس فوق حفرة السباح.

تأمله فى رعب لكنه لمح فجأة شوكته مغروسة فى مكانها. انتزعها و اقترب فى زعر لمعرفة الحقيقة.

إنه هو، البروسى خرج من الحفرة و يجلس تحت الجليد المتساقط بينما الدماء تنزف منه كان يعانى السكر واللكمات. يبدو كأنه لا يفهم شيئاً. عندما رأى صاحبه بدا كأنه بقرة مستأنسة فقال «أنطوان»:

- آه أيها الخنزير! لم تمت! ستحاكمنى الآن.. انتظر..

هجم على الألمانى، دفعه بالشوكة بكل قوته، غرس كل الشوكة فى صدره. سقط الجندى و هو يصرخ بشدة ويلفظ

أنفاسه بينما انتزع الفلاح الشوكة وراح يطعن البطن بعدة ضربات ثم الرقبة. كان يضرب بشراسة وانهالت الدماء بغزارة. ثم توقف برهة وهو يتأمل القاتل.

بدأ ضوء الشمس فى السطوع وبدأت الديوك فى الصياح وانهمك «أنطوان» فى دفن الرجل. حفر حفرة عميقة وألقى بالجثة. ثم هبط الجليد ليخفى كل أثر لما حدث.

أعاد غرس الشوكة فى الأرض وعاد إلى الدار. أكمل زجاجة الخمر وغط فى نوم عميق.

استيقظ نسيطاً متفتحاً. ثم راح يجرى فى البلدة لمدة ساعة وهو يسأل الناس عن جنديه. ذهب إلى القائد الألمانى و سأله: لماذا سحبت منى الجندى؟

ولأن الجميع يعلم علاقات «أنطوان» ونفوزه، لم يوجه له أحد الاتهام لكنهم اتهموا جندياً عجوزاً متقاعداً يمتلك فندقاً صغيراً فى القرية المجاورة وله ابنة جميلة وأعدموه.



مغامرة «والتر شنافز»

منذ وصوله إلى فرنسا مع القوات الغازية، «والتر شنافز» يعتبر أكثر الرجال بؤساً. ضخم، ثقيل الخطوات، يعاني كثيراً من قدميه الضخمتين المفلطحتين. مع ذلك فهو رجل مسالم يحب الحياة. ليس كريماً أبداً ولا دمويًا. أب لأربعة أطفال يحبهم كثيراً و زوج لشابة شقراء يمنحها الحنان و العناية والقبلات كل ليلة. يستيقظ متأخراً و ينام مبكراً. يأكل الطعام الجيد ببطء ويشرب البيرة فى الحانات. يعتقد أن كل شىء فى الوجود هادئ ويختفي مع مرور الأيام. ينطوى قلبه على كراهية شديدة، فطرى ومتعقل فى نفس الوقت. بالنسبة للبنادق والمسدسات والحراب، خاصة الحراب، يعتقد أنه يعجز عن الدفاع عن نفسه بسبب كرشه الضخم.

عندما ينام على الأرض أثناء الليل متدثراً بمعطفه بجوار رفاقه الذين يشخرون أثناء النوم، يفكر فى أقاربه الذين تركهم هناك وفى مخاطر الطريق: إذا قتل، ماذا سيحدث للصغار؟ من سيطعمهم و يربيهم؟ ليس ثرياً، بل استدان قبل سفره ليترك لهم بعض المال. يبكى من لآخر حزناً عليهم.

فى بداية المعركة شعر بالضعف فى سيقانه لدرجة أنه يسقط أحياناً. فى هذه اللحظة يخشى أن تخترق كل الاسلحة كل أجزاء جسده. يقشعر بدنه عند سماع فرقعة الطلقات. منذ بضعة شهور يعيش فى رعب و قلق.

وحدثه اتجهت إلى النورماندى وبعد مناوشات بسيطة نجحوا فى الاستيلاء على جزء من البلد. ثم انسحبوا بعد ذلك. يبدو كل شىء هادئ فى الحقول. لا شىء يدل على أن هناك مقاومة تستعد.

هكذا هبط البروسيون بهدوء إلى الوادى الضيق الذى يقطع مخرات السيول العميقة. و فجأة داهمتهم المقاومة الفرنسية العنيفة، يحملون الكثير من البنادق، خرجوا عليهم من الشقوق ومخرات السيول.

وقف «والتر شنافز» ثابتاً مذهولاً ضائعاً حتى أنه لم يفكر فى الهرب. ثم إجتاحته رغبة مجنونة فى الاستسلام. لكنه يعلم أنه سيتحرك مثل السلحفاة بالمقارنة مع الفرنسيين النحفاء الذين يقفزون بخفة مثل قطيع الماعز. ولاحظ وجود حفرة عميقة مليئة بالأعشاب البرية الجافة. قفز فى الحفرة دون أن يفكر فى العمق مثلما نقفز من الجسر إلى النهر.

سقط فى الحفرة مثل سهم عبر طبقة سمكية من الأشواك مزقت وجهه ويديه ثم إصطدم بعنف بالأرض الصخرية .

رفع ناظريه فرأى السماء خلال الثقب الذى تسبب فيه . كان من الممكن أن يموت فى هذه الحفرة لكنه جاهد كثيراً بأطرافه الأربعة لتسلق الأشواك بأسرع وقت حتى وصل إلى سطح الأرض . القوات المتحاربة ابتعدت الآن فجلس وسط الأعشاب مثل الأرنب .

فى البداية سمع ضجيج المعركة يبتعد ، ثم خفت الضجيج شيئاً فشيئاً إلى أن اختفى تماماً و هبط الصمت الكثيف .

فجأة شعر بحركة قريبة منه . ارتجف فى ذعر ثم اكتشف أنه عصفور صغير يقف على فرع شجرة و يقلب الأوراق الميتة . ظل قلبه يقفز بقوة لمدة ساعة تقريباً .

هبط الظلام فى الوادى وبدأ الجندى يفكر فى الأمر . ماذا يفعل؟ هل يتحرك نحو جيشه؟ لكن كيف؟ وفى أى اتجاه؟ عاوده الهم الذى اجتاحه فى بداية الحرب . لم يكن يتحلى بالشجاعة أبداً ولا بالطاقة الكافية لاستكمال طريقه ومواجهة الأخطار فى كل لحظة .

لكن ماذا يفعل؟ لا يستطيع البقاء فى هذا الوادى حتى نهاية العدوان. لو كان باستطاعته الاستغناء عن الطعام! يجب أن يأكل كل يوم.

وجد نفسه وحيداً وهو يرتدى زى الجنديّة وسط الأعداء، بعيداً عن الرفاق الذين يدافعون عنه. ارتجف.

فكر فجأة: لو كنت سجيناً! امتلأ قلبه بهذه الرغبة، رغبة قوية متطرفة فى أن يكون سجيناً فى جيش الفرنسيين. هكذا سينقذ نفسه، سيجد المأكل والمأوى بعيداً عن الطلقات النارية. هل هذا ممكن؟ سجن جميل فى حراسة مشددة. يا له من حلم رائع. تملكته هذه الرغبة وهو يقول فى نفسه: سأعتبر نفسى سجيناً.

هب واقفاً وقرر تنفيذ هذا المشروع دون التردد لحظة واحدة. وقف ثابتاً ثم ارتجف عندما اكتشف المشاكل الجديدة.

أين هو السجن؟ وكيف يحدث ذلك؟ إلى أى اتجاه يذهب؟ تخيل المشاهد المرعبة، مشاهد القتلى و الجرحى. تخيل نفسه يجرى بين المخاطر، مغامراً وحيداً بقبعته المدببة فى الحقول.

ماذا سيحدث لو التقيت الفلاحين؟ عندما يرى الفلاحون جندياً بروسياً تائهاً أعزل سيقتلونه بسرعة مثل كلب أجرب. ربما سيدبحونه و يسلخونه، ربما سيلتهمونه بعد تمزيقه إرباً.

ما الذى سيحدث لو التقى الصيادين الفرنسيين؟ إنهم يتعاملون بدون أى قانون و لا أية أخلاق. سيقتلوننى على سبيل المزاح ليضحكوا. تخيل نفسه مربوطاً فى الجدار فى مواجهة اثنتى عشرة بندقية.

ما الذى سيحدث لو التقى الجيش الفرنسى نفسه؟ جنود المقدمة سيحفظون له حياته مؤقتاً للحصول على المعلومات بطريقتهم الخبيثة ثم سيقتلونه. سمع صيحات الجنود المخفية خلف الجبال بينما هو يقف وحيداً وسط الحقول. شعر بالطلقات النارية وهى تخترق جسده. ارتجف بائساً. لا يوجد حل لمشكلته.

هبط الظلام كثيفاً، الليل صامت أسود. لم يتحرك من مكانه. يرتجف لأقل صوت مهما كان خفيفاً. الأرانب تجرى حوله. نعيق البوم يمزق روحه، ترجفه مثل الجرحى. فتح عينيه عن آخرهما محاولاً الرؤية فى الظلام وهو يعتقد دائماً فى وجود خطوات قريبة منه.

بعد ساعات طويلة من القلق والهم لاحظ خلال فروع الأشجار التى فوقه السماء قد أصبحت صافية. بدأ يشعر بالارتياح. ارتخت كل عضلاته وبدأ قلبه يهدأ وأغلق عينيه ونام.

عندما استيقظت بدت له الشمس فى كبد السماء، ربما ساعة الظهر. لا يوجد أى صوت فى الحقول الهادئة وشعر بالجوع الشديد يداهم، تحرك فمه وهو يتذكر الوجبة العسكرية التى يقدمونها للجنود.

هب واقفاً وتحرك بضع خطوات، شعر بسيقانه ضعيفة وهو يفكر فى مصيره. راح يقارن لمدة ثلاث ساعات بين ما هو صواب وما هو خطأ. يبدل رأيه فى كل لحظة، يذهب عقله من النقيض إلى النقيض.

أخيراً بدت له فكرة منطقية وعملية وهى أن يتجه إلى القرية وحيداً بدون سلاح وبدون أية معدات تبدو خطيرة، يجرى أمامهم وهو رافعاً يديه ليؤكد لهم الاستسلام.

رفع قبعته المدببة المميزة للجيش الألمانى. لا يبدو أحد فى الأفق. فى جهة اليمين توجد قرية صغيرة ترسل بدخانها إلى السماء. إنها رائحة الطعام. فى جهة اليسار لاحظ وجود صف من الأشجار يظلل الطريق إلى قصر كبير بجانب مخزن السلاح.

ظل على هذا الحال حتى هبط المساء، يعانى الذعر، لا يرى إلا الغربان ولا يسمع إلا أصواتاً خافتة آتية من بعيد. الظلام اقتحم أعماقه. دخل مخبأه فى الحفرة و نام محموماً يعانى الكوابيس، إنه نوم الجوعان.

عاد الفجر فوق رأسه وعاد إلى الملاحظة والمراقبة. لكن الحقول خاوية تماماً مثل اليوم السابق و شعر بنوع جديد من الخوف. الخوف من الموت جوعاً. رأى نفسه ممدداً فى عمق الحفرة ورأى كل الحيوانات والطيور تنهش جسده المسجى ميتاً من الجوع. شعر بالحيوانات وهى تزحف تحت ملابسه بحثاً عن اللحم البارد وشعر بالغراب الضخم وهو يلتهم عينيه.

هذه التخيلات أصابته بالهوس، رأى نفسه يموت من الضعف عاجزاً عن السير. ألقى نظرة إلى القرية ورأى ثلاثة فلاحين يخرجون إلى الحقول حاملين الفؤوس، فدس نفسه فى الحفرة. ما أن هبط الظلام حتى خرج من الحفرة و اتخذ طريقه محنياً خائفاً و قلبه ينبض بعنف. اتجه إلى القصر البعيد. لقد فضل هذا الاتجاه عن القرية التى بدت له مأوى للنمور.

نوافذ الطابق الأسفل تتلألأ. إحدى النوافذ مفتوحة ويخرج منها رائحة اللحم الطازجة. اخترقته الرائحة حتى وصلت إلى بطنه فراحت أمعاؤه تتلوى. وفجأة، بدون تفكير تقدم نحو النافذة وهو يرتدى قبعته.

رأى ثمانية يلتفون حول المائدة الكبيرة. فجأة لمحتة خادمة وحدقت بعينها وارتبكت حتى سقط كوبها. اتجهت كل الأنظار إليه. لقد اكتشفوا العدو.

سیدی! البروسیون اقتحموا القصر.

كانت صرخة واحدة فى البداية ثم أصبحت ثمانى صرخات مفرزة بأصوات مختلفة ثم دب الهرج و المرج و فروا هاربين من الباب. سقطت المقاعد، الرجال دفعوا النساء ثم مروا فوقهم. خلال ثانيتين أصبح المكان خاوياً بينما الطعام على المائدة أمام «الترشنافز» الذى مازال واقفاً أمام النافذة.

بعد بضع لحظات من التردد اخترق النافذة. الجوع جعله يرتجف محموماً لكن الخوف مازال يشل حركته. تنصت، يبدو أن كل البيت فى حالة تأهب. الأبواب أُغلقت، خطوات سريعة فى الطابق الأعلى. تنصت البروسى مرتجفاً على هذه الحركات ثم سمع أصواتاً حادة كما لو أن الأجساد تتساقط على الأرض المبللة بجوار الجدار. أجساد بشرية تقفز من الطابق الأعلى. ثم اختفت كل الأصوات وكل التحركات وغرق القصر فى الصمت مثل القبر.

والترشنافز» جلس أمام أحد الأطباق و راح يأكل بشراهة وبسرعة خوفاً من المداهمة فى القريب العاجل. يأكل بكلتا يديه، يزدرد الطعام بسرعة دون أن يمضغه.

أفرغ كل ما فى الأطباق والزجاجات حتى الثمالة. احمرت وجنتاه. خلع سترته من التخمة وأصبح عاجزاً عن الحركة. أغلق عينيه، هدأ عقله، وضع رأسه الضخم على ذراعيه فوق المنضدة وفقد وعيه.

مع الساعات الأولى للنهار رأى الظلال تنزلق فى غرفة المهملات، كثيرون و صامتون. أحياناً يكتشف تحت الضوء الشاحب القطع النحاسية على الصدور.

القصر الهادئ يلقى بظلاله السوداء. لا يوجد ضوء إلا فى نافذتين فى الطابق الأسفل. فجأة دوت الصرخة:

- إلى الأمام، هجوم يا أولادى.

فى لحظة واحدة تحطمت الأبواب والنوافذ تحت الهجوم العنيف. فى لحظة خاطفة هجم خمسون جندياً مدججون بالسلاح على المطبخ حيث ينعم «والتر شنافز» بالهدوء. وجهوا إلى صدره خمسين بندقية، كبلوه من سيقانه ويديه ورأسه.

كان ضعيف الذكاء حتى أنه لم يستطع أن يفهم ما يحدث لكنه مصاباً بالذعر. تقدم نحوه ضابط يتلأأ بالذهب ووضعه ساقيه فوق بطنه وقال:

- أنت سجينى. هيا بنا.

البروسى لم يسمع إلا كلمة «سجين» وسعد بها . ضحك .
أخيراً أصبح سجيناً .

دخل ضابط آخر و قال :

- سيدى، الأعداء فروا هاربين، يبدو أن لديهم الكثير من
الجرحى . أصبحنا أسياد المكان الآن .

هتف الضابط الذى ألقى القبض عليه :

- النصر لنا .

ثم أخرج دفترًا صغيراً من جيبه و كتب : هاجمت بالقوة
المكونة من خمسين جندياً تحت قيادتى واستطعت قهر العدو
وإجباره على الفرار جريحاً وسقط الكثير منهم أسيراً لدينا .

ثم قاده إلى السجن وأمضى البروسى أيامه سعيداً . أصبح
متحرراً من كل العلاقات الإنسانية، أصبح لا يعانى شيئاً أبداً .
يأكل و يشرب وينام . أحياناً يرقص فى نشوة سعيداً بأنه أصبح
سجيناً .



صخرة الأكتع

إنه موسم «أكتع القطب الشمالى».

من إبريل حتى نهاية مايو، قبل أن يأتى المصطافون الفرنسيون، نرى على شاطئ «إبترات» بعض السادة العجائز يرتدون أحذية برقبة طويلة و سترات الصيد. يمضون أربعة أو خمسة أيام فى فندق «هوفيل» ثم يختفون ويعودون بعد ثلاثة أسابيع. ثم يذهبون بلا رجعة.

لا نراهم إلا فى الربيع التالى.

إنهم آخر صيادى «الأكتع». إنهم المتبقون لأن عددهم كان يصل إلى عشرين منذ ثلاثين أو أربعين سنة. كلهم فى غاية النشاط. لم يبق منهم الآن إلا عدد قليل.

«الأكتع» هو طائر مهاجر نادر جداً ويمتاز بعباداته الغريبة. يعيش معظم أيام السنة فى الأرض الجديدة، جزر «سان بيار» و «ميكولون». لكن فى موسم التزاوج يهاجر عبر المحيط. كل سنة يأتى ليبنى عشه ويضع بيضه فى نفس المكان، فى صخرة تدعى «صخرة الأكتع» بالقرب من «إبترات». لا نعثر عليه إلا هنا، مازال يأتى دائماً. الصغار التى فى الأعشاش ترحل لمدة عام بعد أن تنمو وتتعلم الطيران.

لماذا لا تذهب هذه الطيور إلى مكان آخر؟ ألا يوجد أماكن أخرى مشابهة تقابلها في الطريق؟ ما هي القوة التي تدفعها لذلك؟ ما سر هذا السلوك الغريزي الذي يدفعها إلى هذا المكان؟ هل العاصفة دفعت بالمهاجرين الأوائل إلى هنا وأصبح الأبناء يفعلون مثلهم؟ ولماذا يعود الأبناء والأحفاد؟

أعدادهم ليست كثيرة. بضع مئات على أكثر تقدير. يبدو أنها أسرة واحدة اعتادت هذه الهجرة السنوية.

في كل ربيع يأتي الجيل الجديد وينتظرهم نفس الصيادين في نفس القرية. كنا نرى هؤلاء الصيادين وهم شباب والآن أصبحوا عجائز لكنهم يصرون على هذا اللقاء السنوي منذ ثلاثين أو أربعين عاماً.

في ذات ليلة من إبريل الماضي وصل الصيادون ينقص أحدهم وهو السيد «أرنال».

إنه لم يرسل أحداً و لم يعط أية معلومات لأحد، مع ذلك لم يمت مثل الآخرين لأن هناك من شاهده. طالت فترة الانتظار. جلس الأصدقاء على المائدة لتناول العشاء بهدوء. ثم دخلت عربية إلى فناء الفندق. وصل المتأخر. جلس مبتهجاً يفرح يديه وأكل بشراهة. ولأن أحد الرفاق امتعض من تصرفه قال له:

- نعم، ليس لدى وقت لتبديل ثيابى.

ذهبوا إلى الفراش فور الانتهاء من العشاء لأنه يجب الاستيقاظ مبكراً لمداهمة الطيور. لا يوجد ما هو أروع من هذه الرحلة الصباحية.

فى الثالثة صباحاً يوقظ عمال المراكب الصيادين عن طريق إلقاء الرمال على النوافذ. يستعدون خلال دقائق و يهبطون إلى الشاطئ. الغسق لا يبدو فى السماء فى هذه اللحظة وتكون النجوم شاحبة بينما البحر يمسح الرمال والنسمات طازجة حتى أننا نرتجف رغم الثياب الثقيلة.

الرجال يدفعون المركب فوق الرمال فنسمع صوت الاحتكاك الخشن، ثم تبدأ الرحلة مع أول موجة. يرتفع الشراع الداكن وينتفخ قليلاً بالهواء ويتموج فى عدة أشكال غريبة حسب الرياح، ونصل إلى فتحة الخليج التى نراها بالكاد.

تسطع الشمس قليلاً لتبدد الظلام وتبدو لنا الصخرة من بعيد، صخرة بيضاء كبيرة كأنها جدار فى عرض البحر. نقترب من الميناء و نرى السفن الضخمة ويتأرجح مركبنا فى المياه المضطربة. ثم نلمح الشاطئ فجأة حيث يعيش مئات النوارس. هذه هى جزيرة الأكتع.

بمنتهى البساطة هى نتوء صغير من الجرف الصخرى. وسط الصخور نرى رؤوس الطيور وهى تراقب مركبنا. إنها الطيور الصغيرة التى تقبع فى أعشاشها و تخشى الرحيل. بعضهم يجلس على حافة العش، يبدو أنهم يجلسون على مؤخراتهم التى تبدو مثل الزجاجاة لأن أرجلهم قصيرة جداً. عندما تسير على الأرض تبدو مثل الحبق البرى. لا تطير بعد الجرى و فرد الأجنحة مثل كل الطيور بل تلقى بنفسها من العش مثل قطعة الحجر بينما ينتظرها الصيادون. يبدو أنها تعلم مصيرها لكنها لا تحاول الهرب. يصرخ المراكبى: افعلوا ضجة كبيرة بضرب الأخشاب، هكذا تخاف الطيور وتخرج إلى البحر فيسهل اصطيادها.

نفعل ذلك لمدة ساعة. فى بعض الأحيان تخرج الإناث من أعشاشها رغم رقودها على البيض، نبدأ الصيد وتتساقط الطيور على الصخرة البيضاء وهى تنزف الدم.

فى اليوم الأول، كان السيد «أرنال» يصطاد مبتهجاً كالعادة. لكن أثناء العودة فى العاشرة صباحاً تحت الشمس الساطعة بدا حزيناً قلقاً على غير عادته.

عندما عدنا إلى البلدة أتى إليه أحد أفراد أسرته يرتدى ملابس سوداء وتحدث إليه بصوت منخفض. بدا كأنه يتفكر ويتردد ثم قال: لا، غداً.

فى اليوم التالى عدنا للصيد . السيد «أرنال» فقد الكثير من الطيور رغم مرورها بالقرب من فتحة بندقيته . ضحك أحد الأصدقاء وسأله إن كان قد سقط فى الحب حديثاً . سأله عن السر الذى يشغل باله . فقال :

- بالفعل يجب أن أرحل بسرعة وهذا يزعجنى .

- كيف تترك الصيد بسهولة؟ و لماذا؟

- لى أعمال كثيرة، لا أستطيع الانتظار كثيراً .

ثم راح يتحدث فى موضوعات أخرى .

فى ساعة العصر ظهر السيد «أرنال» وبدأ يستعد للرحيل . حاول الأصدقاء منعه . قال أحدهم :

- لا أعتقد أنها أعمال هامة جداً بدليل أنك انتظرت معنا يومين .

اضطرب السيد «أرنال» وهو يفكر بجدية . بعد الكثير من التردد قال :

- أنا ... أنا ... أنا لا أعيش بمفردى . يوجد معى ريببى .

انفجرت الصيحات والاستفسارات :

- ربيبيك؟ أين هو؟

احتقن وجهه بالدماء وقال:

- كيف لا تعرفون ذلك؟... كيف؟... لكنى أجلت هذا الأمر. لقد مات.

هبط الصمت كثيفاً. ثم أكمل السيد «أرنال» مضطرباً:

- أشعر بالحزن الشديد لفقده. الجثة فى منزلى فى «بزفيل». أتيت إليكم حتى لا أخلف موعدى لكن لا يجب التأخير أكثر من ذلك.

قال أحد الصيادين بغلظة:

- طالما إنه ميت، إذأ تستطيع الانتظار معنا يوماً آخر.

قال الآخرون: هذا مؤكد.

اضطرب السيد «أرنال» وقال:

- هل تعتقدون أن هذا ممكن؟

قال كل الصيادين بصوت واحد:

- بالتأكيد عزيزى. طالما إنه ميت، التأخير لمدة يومين لن يزعجه فى شىء أبداً.

التفت السيد «أرنال» إلى الرجل الذي يرتدى ملابس

سوداء وقال:

- إذاً، سأعود بعد غد.



الصدأ

لا يهوى شيئاً فى حياته إلا الصيد . يصطاد كل يوم من الصباح إلى المساء . يصطاد بشراسة . يصطاد فى الشتاء والصيف، فى الخريف والربيع . فى المستنقعات والسهول عندما تسمح القوانين بذلك . يصطاد بالبندقية بالتخفى والجرى والمطاردة بالكلاب . لا يتحدث إلا عن الصيد . يحلم بالصيد . يكرر دائماً: البؤساء هم من لا يحبون الصيد .

إنه الآن فى الخمسين من العمر، أنيق طازج أصلع، يميل إلى السمنة لكنه شرس، يحلق شاربه ليحرك فمه بحرية ويسهل عليه إطلاق الصيحات القوية .

لا نعرفه فى البلدة الا باسمه «هكتور» بينما اسمه كاملاً هو البارون «هكتور جونرو دى كوتيليه» .

يعيش وسط الأحرش فى قصر ريفى ورثه عن أسرته . يعرف كل النبلاء فى المنطقة و يلتقى بهم فى رحلات الصيد . لا يحتك إلا بأسرة واحدة . أسرة «جورفيل»، جيرانه الودودون . الصداقة بينهم قديمة، تعود إلى الآباء والأجداد . فى هذه الأسرة يدلونه و يحبونه كثيراً فيقول لهم: لو لم أكن صياداً ما

تركتكم لحظة واحدة. السيد «جورفيل» صديقه منذ الطفولة. إنه مزارع ذكى يعيش بهدوء مع زوجته وابنته وصهره السيد «دارنتوت» الذى لا يفعل شيئاً بحجة دراسة التاريخ.

البارون «كوتيليه» يعتاد على تناول العشاء مع أصدقائه لكى يحكى لهم عن مغامراته فى الصيد. لديه الكثير من الحكايات، يحدثهم عن الكلاب كأنها شخصيات مرموقة معروفة للجميع. ينتزع عقولهم و يجذب اهتمامهم. يحلل ويشرح لهم: ما أن رأى «ميدور» أن الجرى سيستمر طويلاً حتى قال فى نفسه: انتظر أيها الجسور سنضحك كثيراً. أشار لى برأسه يطالبنى بالاختفاء فى ركن و راح يضرب الأعشاب ليفعل الضوضاء فتهرب الضحية إلى زاوية لا يمكن الهرب منها. كل شىء حدث كما يريد. هكذا وجد الطائر نفسه فوق روثه عاجزاً عن الحركة دون اكتشافه. سب الطائر وهو يحثه على الاقتراب. سقط «ميدور» فأثرت له مشجعاً. هرب الطائر فقال لى: إنها مجرد لعبة هذه المرة سيد «هكتور».

«جورفيل»، «دارنتوت» و السيدتان يضحكون بجنون على هذه الحكايات المثيرة بينما البارون يتحدث بكل انفعال. يبتهجون بشدة عندما يقول لهم: وأخيراً سقطت الفريسة. يضحكون بشدة وهم يسألون: هل الفريسة كانت جميلة؟

عندما يتحدثون عن شيء آخر لا يسمع شيئاً، يجلس وحيداً صامتاً. وعندما يصمتون قليلاً يصيح فى بهجة مقلداً أصوات الطيور. إنه لا يعيش إلا من أجل الصيد.

فجأة أصابه الروماتيزم والتزم الفراش لمدة شهرين. كان سيموت من الحزن والشجن. ولعدم وجود خادمة فى البيت استأجر خادماً عجوزاً لإعداد الطعام ولم يكن طعامه جيداً أبداً. الخادم العجوز لا يهتم بأى شيء، ربما لأنه يعانى المرض أكثر من سيده. ينام طوال النهار و الليل فوق المقعد بينما البارون يتقلب فى الفراش.

سيدات «جورفيل» يأتين من حين لآخر لزيارته فيشعر معهن بالبهجة لعدة ساعات. يحضرن له بعض الطعام، يعتنين بالنيران و يقدمن له وجبة الغذاء فى فراشه. عندما يرحلن يغمغم: يجب أن تأتين لتسكن هنا. فيضحكن.

بعد أن تحسنت حالته وخرج للصيد ذهب لتناول العشاء مع أصدقائه كالعادة. لكنه لا يبدو مبهتجاً. أصبحت هناك فكرة تلح عليه وتقلقه. الخوف من العودة إلى رقدة المرض والألم. فى أيام المرض كان النساء يدثرنه بالبطنانية ويحطن رقبتة بالمنديل. هذه أول مرة يفعل ذلك. غمغم بصوت حزين: لو عاد المرض سأهلك.

عندما انصرف قالت حرم «دارنتوت»: يجب أن نزوج البارون.

هتف الجميع: كيف لم نفكر فى ذلك من قبل؟ أصبحوا فى كل الأمسيات يبحثون بين الأرامل الذين يعرفونهم. وقع الاختيار على امرأة فى الأربعين من العمر، جميلة، متوسطة الثراء، رفيعة الأخلاق، اسمها السيدة «برشا فيلى»

دعواها لقضاء شهر معهم، انزعجت لكنها أتت. كانت نشيطة ومبتهجة. أعجب السيد «كوتيليه» على الفور وهى سعدت به كأنه لعبة حية. أمضت معه ساعات طويلة تسأله عن سلوك الفرائس من الأرانب والذئاب. وضح لها سلوك مختلف الحيوانات وهو يؤكد لها أنها تفكر بعقل مثلنا.

هذا الاهتمام منها أسعده كثيراً. فى ذات ليلة لكى يثبت لها إعجابه بها دعاها للخروج معه للصيد. هذا ما لم يفعله من قبل أبداً. كانت الدعوة لطيفة ووافقت. إنها فرصة جيدة للتقارب وراح الجميع يعاونها ويقدم لها كل ما تحتاج إليه. بدت أمازونية متوحشة وهى ترتدى حذاءً برقبة طويلة وملابس الرجال وتنورة قصيرة وسترة من القطيفة حتى الرقبة ضيقة جداً وقبعة مروضى الكلاب.

البارون بدا مرتبكاً كأنه يخرج للصيد لأول مرة فى حياته .
راح يشرح لها اتجاهات الريح والطرق المختلفة للمطاردة
بالكلاب و طريقة إصابة الفريسة ثم اندفع إلى الحقول وهو
يتبعها خطوة بخطوة مثل الأم التى تراقب الخطوات الأولى
لوليدها .

« ميدور » ينهمك فى الصيد بينما البارون خلف تلميذته
يرتجف مثل أوراق الشجر و يوجهها : انتبهى... انتبهى.... طائر
الجلل...

ما أن أنهى قوله حتى ارتفع الضجيج من الأرض و ظهر
طائر ضخم وهو يرفرف بجناحيه فى الهواء .

اندهشت السيدة «فيلى»، أغمضت عينيها وهى تطلق
طلقتين واندفعت للخلف من رجة البندقية. عندما استعادت
هدوءها رأت البارون يرقص مثل المجنون و«ميدور» يأتى حاملاً
الطائرين.

منذ هذا اليوم أصبح السيد «كوتيليه» متيماً بها . يقول
وهو يرفع عينيه: يا لها من امرأة. أصبح يأتى كل الأمسيات
ليحدث عن الصيد .

فى ذات يوم سأله السيد «جورفيل»:«

- لماذا لا تتزوجها؟

ارتجف البارون وقال:

- أنا؟ أنا؟... أتزوجها! لكن...

ثم صمت. ضغط على يد صديقه وغمغم:

- إلى اللقاء، صديقى...

واختفى بخطوات متعجلة فى الظلام.

مرت ثلاثة أيام دون أى لقاء. عندما ظهر كان شاحباً من كثرة التفكير، صارماً على عكس عادته. انفرد بالسيد «جورفيل» وقال له:

- يوجد لديك فكرة جيدة. حاول إقناعها عليك اللعنة. امرأة مثل هذه لم تُخلق إلا لى. سنصطاد معاً طوال السنة.

السيد «جورفيل» ابتهج وقال:

- أطلبها على الفور يا عزيزى. هل تريد منى القيام بهذه

المهمة؟

ارتجف البارون فجأة و غمغم:

- لا... لا... يجب القيام برحلة قصيرة قبل ذلك. رحلة إلى «باريس»... عندما أعود سأخبرك بقرارى الأخير.

لم نستطع معرفة أية معلومات أخرى و رحل فى اليوم التالى.

طالت الرحلة كثيراً. أسبوع، أسبوعين، ثلاثة أسابيع. «كوتيليه» لا يظهر أبداً. أسرة «جورفيل» أصيبت بالذهول والقلق. لا يجدون ما يقولونه لصديقتهم التى أخبروها بنية البارون. يرسلون إلى قصره، كل يومين، من يبحث عن أخبار جديدة لكن خدمه لا يعلمون شيئاً.

فى ذات ليلة، بينما كانت السيدة «فيلى» تغنى وهى تعزف على البيانو، أتت خادمة غامضة تبحث عن السيد «جورفيل» وهى تقول بصوت منخفض جداً: هناك رجل يطلبه.

إنه البارون يرتدى ملابس السفر. تبدل حاله كثيراً، شاخ. ما أن رأى صديقه القديم حتى صافحه باليد و قال بصوت مجهد:

- وصلت للتو يا عزيزى و أتيت لك على الفور ولا أستطيع فعل شىء آخر.

ثم تردد و هو يقول:

- أريد أن أخبرك... فوراً... أن هذا... هذا الموضوع... الذى تعرفه... منتهى.

نظر إليه السيد «جورفيل» بذهول:

- كيف انتهى؟ و لماذا؟

- آه! لا داعى للسؤال أرجوك. الحديث فى هذا الموضوع مؤلم جداً. لكن يجب أن تكون واثقاً من أننى أتعامل... كرجل شريف. لا أستطيع غير ذلك. ليس من حقى، أسمعنى؟ ليس من حقى الزواج بهذه السيدة. سأنتظر حتى ترحل من عندكم لأعود لزيارتكم. من المؤلم جداً أن أراها. الوداع.

قال ذلك ثم فر هارباً.

دب الاضطراب فى كل الأسرة، يتناقشون وهم يبحثون فى ألف استنتاج من الواضح أن هناك غموضاً كبيراً فى حياة البارون. ربما يكون لديه أطفال من علاقة قديمة. يبدو أن الأمر جاد جداً. فى النهاية أخبروا السيدة «فيلى» أنها ستعود أرملة مثلما أتت أرملة.

بعد مرور ثلاثة أشهر، فى ذات ليلة، بعد وجبة العشاء الدسمة أصبح السيد «كوتيليه» يترنح وهو يدخن الغليون مع السيد «جورفيل» وقال له: لو علمت كيف أفكر كثيراً فى صديقتك ستشفق علىّ.

ارتجف الآخر من سلوك البارون فقال بسرعة:

- عليك اللعنة يا عزيزى. حتى لو كان هناك أشرار فى حياتك لا يجب أن تفعل ما فعلت. على الأقل ، يجب تقديم الدوافع لذلك.

انزعج البارون و توقف عن التدخين وهو يقول:

- نعم، أنا نفسى لا أصدق ما حدث.

قال السيد «جورفيل» بصبر نافذ:

- يجب أن تخبرنى بكل شىء.

راح السيد «كوتيليه» يجول ببصره فيما حوله ليتأكد من عدم وجود أحد بجوارهما ثم قال بصوت منخفض:

- سأخبرك بكل شىء لكى تعذرنى. منذ عشرين عاماً يا صديقى وأنا لا أعيش إلا من أجل الصيد. لا أحب غير ذلك كما تعلم و لا أشغل نفسى إلا بذلك. عندما اكتشفت واجباتى نحو هذه السيدة داهمتى الوسائس، وسائس فى ضميرى. منذ أن ابتعدت عن ممارسة... الحب... أصبحت لا أعرف إن كنت قادراً على... تعرف جيداً... هل تتخيل إذا؟ لم أمارس الحب منذ عشرين عاماً... تفهمنى طبعاً. فى هذه البلدة ليس من السهل ممارسة الحب. كذلك أصبح لدى أشياء أخرى أفعلها. أصبحت أفضل الطلقات النارية للبندقية. عندما فكرت أننى سأقف أمام القاضي و القس شعرت بالخوف و تعجبت لذلك. لكن إذا.... إذا.. أخفقت. الرجل الشريف يفكر جيداً فى كل واجباته. سيكون على واجبات لهذه السيدة. لكى أتأكد من ذلك ذهبت لقضاء ثمانية أيام فى باريس.

حاولت لمدة ثمانية أيام. لا شيء. لا شيء أبداً. ليس خطأ
فى الاختيار. اصطحبت أجمل الفتيات، حاولن معى بكل الطرق
الممكنة... نعم، بالتأكيد كن عاريات تماماً، ثم يسألننى: ماذا
تريد إذا؟... لم أستطع فعل أى شيء.

انتظرت لمدة خمسة عشر يوماً، ثلاثة أسابيع. كان لى
الأمل دائماً. تناولت فى المطاعم بعض الوجبات المنشطة والتوت
أمعائى... لكن دائماً لا شيء.

فى هذه الحالة لى أمامى إلا الانسحاب. هذا ما فعلته.

جاهد السيد «جورفيل» حتى لا يضحك. ضغط على يد
البارون بشدة و هو يقول: أعذرك.

و بعد أن انفرد بزوجه أخبرها بكل شيء و هو مبتهج لكن
حرمه لم تكن تضحك. كانت تسمع بجدية ثم قالت بحزم:

- البارون جبان يا عزيزى، لقد خاف. هذا هو كل ما فى الأمر.
سأكتب غداً إلى «برشا» و أطلب منها العودة فى أقرب الوقت.

خشى السيد «جورفيل» من هذا الاقتراح لكن زوجته قالت:

- طالما أنه يحب زوجته ستسير الأمور على أحسن وجه.



الحارس

أثناء حكى قصص ومغامرات الصيد بعد تناول العشاء، كان بيننا صديق قديم وهو السيد «بونيفاس». صياد ماهر ويشرب كثيراً. رجل قوى و نشيط، مفعم بالأفكار والمشاعر والفلسفة، فلسفة ساخرة. ينتقد أشياء كثيرة بسخرية لاذعة ولا يبدى أى شعور بالحزن. قال فجأة:

- أعلم إحدى حكايات الصيد، أو بالأحرى مأساة الصيد، وهي غريبة جداً. لا تشبه كل الحكايات التى نسمعها ولم أقصها على أحد لأننى أعتقد أنها لن تروق لأحد.

الحكاية ليست طريفة، هل تفهموننى؟ أقصد أن أقول لا يوجد منها أية فائدة ولا أية إثارة ولا أى شجن. أخيراً هذا ماحدث.

كنت فى الخامسة و الثلاثين من العمر وكنت أصطاد بشراسة.

فى هذا الوقت كنت أذهب إلى الأرض المعزولة على حدود «جومياج»، المكان محاط بالغابات ومناسب جداً لاصطياد الأرناب. كنت أقضى هناك وحيداً أربعة أو خمسة أيام كل عام. القوانين هناك تمنعنى من اصطحاب أحد معى.

كنت أقيم هناك مع الحارس، إنه جندى قديم متقاعد، رجل عنيف يلتزم بوعوده، لكنه مرعب بالنسبة للصيادين المخالفين، لا يهاب شيئاً. يسكن وحيداً بعيداً عن القرية في بيت صغير، أو بالأحرى خرابة تتكون من حجرتين فى الأسفل، مطبخ ومخزن، وحجرتين النوم فى الطابق الأعلى. إحدى الحجرتين ضيقة جداً، لا تتسع إلا لفرش و صوان ومقعد. كنت أسكن هذه الغرفة.

الأب «كافاليه» يسكن الغرفة الأخرى. عندما قلت لكم إنه يعيش بمفرده أخطأت فى التعبير، كان يعيش معه ابن أخيه، إنه وغد فى الرابعة عشر من العمر، يذهب لشراء الطعام من القرية التى تبعد ثلاثة كيلومترات و يعاون العجوز فى معيشته. هذا الفاسد نحيف، طويل، خبيث قليلاً، أشقر، شعره خفيف مثل ريش الطيور، من خفة شعره يبدو أصلاً. ساقاه ضخمة و يدها قوية مثل التماثيل القديمة.

شاذ قليلاً ولا يلتقى أحداً أبداً. يبدو لى كأنه حيوان حقير. إنه مثل ابن عرس أو ثعلب. ينام فى ثقب صغير أعلى السلم الذى يقود إلى الحجرتين.

أثناء إقامتى القصيرة فى هذا المكان كنت أطلق على هذه الخرابة اسم الكشك، كان «ماريوس» يتنازل عن فراشه لامرأة

عجوز اسمها «سيلست»، كانت تأتي للقيام بالطبخ لى لأن وجبات الأب «كافاليه» لا تكفى أبداً.

هكذا تعرفون الأشخاص و المكان وهذه هى الحكاية.

فى عام ١٨٥٤، يوم ١٥ أكتوبر، أتذكر هذا التاريخ جيداً ولن أنساه أبداً.

رحلت إلى «روان» بالحصان متبوعاً بكلبى «بوك»، إنه كلب ضخمة مفتول العضلات مفيد جداً للصيد والحماية. كان معى حقيبة السفر وبنديتى. كان الجو بارداً جداً، الرياح حزينة والسحب داكنة فى السماء.

صعدت إلى تبة «كانتلو» و رأيت وادى السين يتمدد أمامى إلى الأفق بتعرجاته مثل ثعبان. «روان» على يسارى بأجراسها الكثيرة، ومن اليمين يتوقف النظر عند الغابات البعيدة. عبرت غابات «روماز» أحياناً فوق الحصان و أحياناً سيراً على الأقدام. وصلت فى الخامسة أمام الكشك حيث وجدت الأب «كافاليه» و«سيلست» فى انتظارى.

آت إلى هنا منذ عشر سنوات فى نفس التوقيت وأجد نفس الأشخاص وأسمع نفس الكلام: طاب يومك سيدى، هل الصحة جيدة؟

لا يبدو أى تغيير فى «كافاليه»، إنه يقاوم الزمن مثل شجره
قديمة. لكن «سيلست»، منذ أربع سنوات أصبحت غير مفهومة.
رغم نشاطها الزائد تبدو كأنها مكسورة، وهى تسير يتدلى
أعلى جسدها إلى الأمام بزاوية تسعين درجة تقريباً.
المرأة العجوز ماكرة جداً، تبدو صامتة دائماً وهى تتأملنى
وتقول لى بعد كل رحلة:

- ربما يكون هذا آخر لقاء بيننا سيدى العزيز.

هذا الوداع الحزين و المخيف من هذه الخادمة العجوز التى
تخشى الموت يصيب قلبى بالحزن كل عام.
هبطت من الحصان بينما «كافاليه» سحب حصانى بخطوات
بطيئة إلى الحظيرة. دخلت الكشك متبوعاً بـ «سيلست» التى
ذهبت إلى المطبخ.

عاد إلينا الحارس و لاحظت من الوهلة الأولى أنه ليس
كعادته، يبدو مشغولاً، قلقت فسألت:

- حسناً يا «كافاليه». هل كل شىء يسير حسب رغبتك؟

غمغم:

- نعم و لا. يوجد أشياء حسنة ويوجد أشياء تقلقنى.

سألت:

- ماذا يعنى هذا؟ تحدث.

هز رأسه و قال:

- لا، ليس الآن سيدى. لا أريد أن أزعجك فور وصولك.

رجوته بالحديث لكنه رفض تماماً قبل تناول العشاء لكنى استنتجت أن هناك أمراً خطيراً.

لا أجد كلمات أقولها فسألت:

- الفرائس؟ هل يوجد فرائس؟

- نعم، بالنسبة للفرائس يوجد منها الكثير.

قال ذلك بصوت جاد جداً حتى أنه بدا لى مضحكاً. شاربه الرمادى الكثيف يبدو على وشك السقوط. و فجأة اكتشفت أننى لم أر ابن أخيه فسألته:

- و «ماريوس»؟ أين هو؟ لماذا لم يأت لاستقبالى؟

ارتجف الحارس وهو يحدجنى بنظرة غريبة و قال:

- حسناً سيدى، أفضل أن أقص عليك الموضوع. بصراحة شديدة الموضوع يخصه .

- حسنًا! أين هو إذًا؟

- إنه فى الحظيرة سيدى. أنتظر وصوله.

- ماذا فعل إذًا؟

- هذا ما حدث سيدى.

تردد الحارس وتغير صوته، ارتجف وبدت التجاعيد فى وجهه. تجاعيد العجز. ثم قال بهدوء:

- لاحظت فى هذا الشتاء إنهم يسرقون فى غابة «روزيرى» لكنى لم أستطع الدفاع عن نفسى. مضت على ليال سوداء سيدى، لا أجد أى مخرج. أثناء ذلك كانوا يسرقون فى تبة «إيكو رشيفيل». إنها إهانة لى. لكن بالنسبة للسارق، مستحيل! يقولون إنه يتبع كل خطواتى ويعرف كل أفكارى.

و فى ذات يوم، ونحن نغسل ملابس «ماريوس»، ملابس يوم الأحد، عثرنا على بعض المال فى جيبه. من أين أتى بالمال هذا الوغد؟

فكرت فى الأمر جيداً لمدة ثمانية أيام و لاحظت إنه يخرج فور دخولى للراحة. نعم سيدى.

راقبته لكن دون أن أشك به. نعم دون أن أشك به. عندما اتجهت للاستراحة أمامه قمت بمتابعته. فى المراقبة لا يوجد إنسان مثلى سيدى.

هذا ما علمته. نعم، «ماريوس» يسلب الناس على أراضى. ابن أختى، حارسى، كنت سأقتله فى مكانه لكنى صفعته فقط وتوعدته بعلقة أخرى فى حضورك. يجب تأديبه.

هكذا أصابنى الحزن بالضعف. أنت تعلم حجم هذه المشاكل لكن أخبرنى ماذا ستفعل؟ لا يوجد له لا أب ولا أم. هذا الوجد ليس له أى قريب غيرى. لقد حافظت عليه ولا أستطيع طرده، أليس كذلك؟

لكنى هدده لو عاد لفعل ذلك سيكون الأمر منتهياً. لن يجد منى أى تعاطف بعد ذلك. هل فعلت الصواب سيدى؟ قلت له وأنا أربت على يديه:

- حسناً ما فعلت يا «كافاليه». أنت رجل محترم.

هب واقفاً و هو يقول:

- شكراً سيدى. الآن سأذهب لتأديبه. يجب تهذيبه.

أعلم أن منع العجوز عما ينتويه لن يجدى فى شىء لذلك تركته يفعل ما يريد.

عاد بعد لحظات وهو يجر الوغد من أذنه. كنت أجلس على مقعد من القش وأرسم الصرامة على وجهي مثل القضاة. بدا لي أن «ماريوس» كبير، أصبح أكثر قبجاً من السنوات الماضية. يبدو خبيثاً ماكرًا وبدت يدها ضخمة. دفعه عمه أمامي وقال بنبرة عسكرية:

- اطلب السماح من السيد.

الوغد لم يقل شيئاً.

هب الحارس العجوز ورفعته من على الأرض وراح يوجه له عدة لكمات عنيفة حتى أنني اضطررت للتدخل لوقف المعركة. صرخ الطفل قائلاً: آسف... آسف...

أعاده «كافاليه» على الأرض و أجبره على الركوع وقال:

- اطلب السماح.

غمغم الوغد قائلاً: آسف.

دفعه عمه بغلظة وفر الصغير هارباً ولم أشاهده طوال هذه الليلة لكن «كافاليه» ظهر مذهولاً وهو يقول: إنه نبتة خبيثة. أثناء العشاء راح يكرر:

- اه! هذا يقتلني سيدي. أنت لا تعرف، هذا يقتلني.

حاولت تهدأته دون جدوى وذهبت للنوم مبكراً للاستيقاظ مبكراً لممارسة الصيد. كان كلبى ينام بجوار الفراش عندما أطفأت الشمعدان.

استيقظت فى منتصف الليل بنباح كلبى الشرس ولاحظت الدخان الكثيف فى حجرتى. قفزت من الفراش وأضأت الأنوار، فتحت الباب واندفعت ألسنة اللهب. المنزل يحترق.

أحكمت غلق الباب وألقيت ملابسى عن النافذة. صنعت حبلاً من الفراش وبالحبل عاونت كلبى على الهبوط من النافذة، ثم أنزلت سلاحى بنفس الطريقة وهربت أنا أيضاً بنفس الطريقة. رحى أصرخ بكل قوتى: «كافاليه»... «كافاليه»... «كافاليه»...

لكن الحارس لا يأتى أبداً. نومه عميق مثل كل الجنود المتقاعدین.

خلال نوافذ الطابق الأرضى بدا المكان كأنه فرن مستعر. لاحظت وجود كميات كبيرة من القش داخل المنزل لتضخيم الحريق. إذاً الحادث مُتعمد. عدت أصرخ: «كافاليه»...

اعتقدت أن الدخان خنقه. عمرت سلاحى وأطلقت طلقة على نافذته. تحطم الزجاج واستيقظ العجوز. ظهر مفزوعاً مجنوناً و هو يرتدى ملابس النوم. صرخت فيه:

- المنزل يحترق، اقفز من النافذة بسرعة، بسرعة.

هاجمت النيران مدخل المنزل ثم زحفت على الجدران حتى اقتربت منه لكنه نجح فى القفز بخفة مثل القط.

السقف المصنوع من القش تحطم من الوسط وسقط فوق السلم ثم تطايرت شظايا المبنى فى الهواء و سقطت مثل المطر حول الكشك. سأل «كافاليه» مذهولاً:

- كيف حدث ذلك؟

أجبتة:

- لو وضعوا النيران فى المطبخ؟

غمغم:

- من يستطيع وضع النيران فى المطبخ؟

استنتجت فجأة وأعلنت:

- «ماريوس».

فهم العجوز وقال:

- اه! لهذا لم يدخل المنزل.

لكن أتتى فكرة مفزعة فصرخت:

- و «سيلست»؟ «سيلست»؟

لم يجبنى لكن المنزل انهار أمامنا و أصبح قطعة رهيبة من الحجر المستعر. لا بد أن السيدة العجوز تحولت الآن إلى قطعة من الفحم.

لم نسمع أية صرخة.

ولأن النيران أصابت الحظيرة تذكرت حصانى وجرى «كافاليه» لإنقاذه.

ما أن فتح باب الحظيرة حتى اصطدم بجسد نحيف وخفيف يفر هارباً من بين سيقانه. إنه «ماريوس» يحاول الهرب بكل قوته.

أدرك «كافاليه» أنه لن يستطيع اللحاق به. لاحظ وجود سلاحى بالقرب منه وقبض عليه بقوه و أطلق النيران وسقط الهارب على الأرض وهو يحاول استكمال الفرار وهو يحبو على أربع. جريت نحو «ماريوس» الهارب وقبضت عليه.

فى التحقيقات طُلب منى الشهادة وقلت كل ما أعرفه دون تبديل حرف واحد. بعد ذلك اختفى الحارس العجوز وهجر المكان و لم أره حتى اليوم.



كتب للمترجم

- أفلاطون فى عصر الفضاء.
- زهرة الصحراء.
- القرصان.
- ١٢ قصة مهاجرة.
- أفكار متناقضة.
- الحلم.
- «كليوباترا» أميرة الحب و الحرب.
- الطاعون.
- «قرطاج».
- أساطير الهنود الحمر.
- أساطير الإغريق.
- «إسكندر» عبقرى السيف و الفكر.
- «يوليوس قيصر» العسكرى و السياسى.
- مقالات فلسفية.

- مقدمة فى الفينومينولوجيا.
- حضارات أمريكا القديمة.
- حكايات البحر.
- تفسير الأحلام.
- قبل الإعدام.
- أكلة لحوم البشر.
- حكايات الصيد.



الصفحة

الفهرس

٥: حكايات أبو فصاد
٩: «موران» الخنزير
٢٧: المجنونة
٣٣: «بيارو»
٤١: الرقصة
٤٧: الخوف
٥٧: مزحة النورماندى
٦٥: صاحب الرفعة
٧٥: المنجدة
٨٧: فى البحر
٩٧: الوصية
١٠٥: فى الحقول
١١٧: العصافير المفردة
١٢٥: الابن

١٢٩: القديس «أنطوان»
١٥١: مغامرة «والتر شنافز»
١٦١: صخرة الأكتع
١٦٩: الصداً
١٧٩: الحارس

حقوق الطبع محفوظة للناشر



أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامي

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر